سِلْسِلَةُ النُّورِ الْخَالِدِ

فَنُّ التَّرْبِيَةِ وَحَلِّ الْمُعْضِلَاتِ

عِنْدَ مَفْخَرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ صلى الله عليه وسلم



٤

المُؤلِّف: مُحمّد فتح الله كولن

المترجم: أورخان محمد علي

سِلْسِلَةُ النُّورِ الْخَالِدِ ٤

ترجمة كتاب (Sonsuz Nur) عن التركية

دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الثالثة: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

الترقيم الدولي: I.S.B.N: 975-315-176-4

الهاتف: (٩٠٢١٦٣١٨٦٠١١+) فاكس: (٩٠٢١٦٣١٨٤٢٠٢+) استانبول / تركيا

مركز التوزيع/فرع القاهرة: ٧ ش البرامكة – الحي السابع – م. نصر – القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٦١٩٢٠٤+

موقع الأستاذ م فتح الله كولن على الإنترنت:

www.ar.fgulen.com

سلسلة النور الخالد ٤

فن التربية وحل المعضلات

عند مفخرة الإنسانية ﷺ

المؤلف: محمد فتح الله كولن

المترجم: أورخان محمد علي

بسم الله الرحمن الرحیم

القسم الثاني

النبي ﷺ مربيّاً

الفصل الأول:

تربية النبي ﷺ ورئاسته للعائلة

إن أفضل ممثل لصفة "الرب" لله تعالى هو سيدنا محمد ﷺ، أي هو أفضل من يمثل هذا الاسم من الأسماء الحسنى حتى بين سائر الأنبياء، لأنه كان صاحب فطرة متميزة. ولا شك أن الصحابة الذين تلقوا التربية منه كانوا أفضل الناس من بعد الأنبياء. فليس في الإمكان رؤية أو تنشئة نماذج أخرى من أمثال أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي رضوان الله تعالى عليهم.

ليس هؤلاء فحسب، بل لا يمكن الوصول إلى مرتبة أي صحابي آخر، لأن هؤلاء تربوا على يد رسول الله ﷺ. وهناك من تربوا في نفس جو التربية النبوية، وكانوا مثل الدرر المنثورة في العصور التي جاءت بعده، حيث نستطيع أن نقول إن هؤلاء أيضاً ربوا من قِبَل رسول الله ﷺ، وأصبحوا مدار فخر الإنسانية.. هؤلاء يصعب مجيء أمثالهم أو تربية أناس في مستواهم أمثال الفُضيل بن عِياض وبشر الحافي وأبي يزيد البسطامي وجنيد البغدادي وأبي حنيفة والشافعي والإمام مالك وأحمد بن حنبل والإمام الرباني والإمام الغزالي ومولانا جلال الدين الرومي والشيخ الكيلاني والشاذلي والنقشبندي وأحمد الرفاعي وبديع الزمان سعيد النورسي.. الخ. لقد تلقن هؤلاء دروسهم منه، ونشأوا على

نظم تربيته وهناك قول جميل ينسب إلى النبي ﷺ ولكنه ضعيف من حيث السند يقول: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل.»[1]

لا يمكن أن يبلغ أحد مرتبة الأنبياء من ناحية الفضل العام، ولكن هناك أوضاع خاصة يكاد يصل فيها بعضهم في مضمار السباق إليهم، وذلك من أمثال الذين ذكرنا أسماءهم آنفاً، وأسماء أخرى يمكن ذكرها أيضاً هؤلاء الأعلام مدار فخرنا، ولو طلب إشغال أماكنهم من قبل آخرين لكان من اللازم إنزال الملائكة من السماء إلى الأرض، ذلك لأن الملائكة وحدهم هم الذين يستطيعون تمثيلهم.

وهذا الأمر خاص بالنبي محمد ﷺ وحده. فالانتساب إليه وحده هو الذي يستطيع إعطاء مثل هذه الثمار، وهذا العطاء سيستمر حتى يوم القيامة وبعد عهد الجفاف الذي نعيشه من يدري من سيظهر من أصحاب هذه الخلال والصفات المقدسة من عظماء القلب والروح، فإن آمالنا معقودة عليهم من زاوية الأسباب. ولا أزال –منذ عرفت نفسي– أنتظرهم وأعقد أملي عليهم.

وقبل أن ننتقل إلى أصول تربيته العامة لنر أصول تربيته البيتية؛ فقد كان رئيس عائلة، وكان في بيته أولاد، وله زوجات وأحفاد.

أ. النبي ﷺ كرئيس عائلة

لا شك أن هذه العائلة كانت أفضل وأسعد وأبرك عائلة في تاريخ الدنيا كلها، فالسعادة كانت تفوح منها أبداً.. لقد كانت هذه العائلة من أفقر

(١) «**كشف الخفاء**» للعجلوني ٦٤/٢؛ «**الفوائد المجموعة**» للشوكاني ص٢٨٦

العائلات في العالم من ناحية القدرة المادية، لأنها كانت تمضي شهور عديدة دون أن يطبخ في البيت طعام كالحساء مثلاً.(١) أما الأماكن المخصصة لزوجاته فكانت عبارة عن غرفة صغيرة لكل منهن أو كوخ صغير. ومع ذلك كانت زوجاته المحظوظات لا يبادلن الساعة الواحدة التي قضينها مع رسول الله ﷺ بالدنيا كلها.. كن محظوظات ومطمئنات وسعيدات.

توفي أبناؤه جميعاً قبله سوى بنته فاطمة رضي الله عنها التي قضت حياتها في ضنك، أي أن رسول الله ﷺ لم يوفر لها أيضاً حياة مرفهة مع أنه كان يحبها جداً وكذلك زوجاته. أما موقعه في قلوب الجميع في البيت فخارج عن الوصف. وبعد وفاة والدها ذرفت فاطمة رضي الله عنها دموعاً ساخنة لأيام طوال،(٢) ولم تستطع الصبر على ألم فراقه سوى ستة أشهر فقط إذ لحقت به وهي متلهفة للقائه.(٣) لم يحب أي ولد أباه مثل حب فاطمة لوالدها، ولم يحب والد ولده مثل حب الرسول ﷺ لبنته.. طبعاً ضمن إطار من التوازن. لم تحب قط امرأة زوجها مثلما أحبت زوجات الرسول ﷺ رسول الله ﷺ، ولم يكن أي زوج محبوباً من قبل زوجاته مثلما كان رسول الله ﷺ محبوباً من قبل أمهات المؤمنين. وما من شك أن هناك سبباً لوجود مثل هذه الهالة من الحب حوله، إذ أن قيام الرسول ﷺ بتطبيق أصول تربوية مع القريبين منه أحدث في القلوب الة حب وتعلق

---

(١) **البخاري**، الهبة، ١، الرقاق، ١٧؛ **مسلم**، الزهد، ٢٨

(٢) انظر: **البخاري**، المغازي، ٨٣؛ **ابن ماجه**، الجنائز، ٦٥؛ **الدارمي**، المقدمة، ١٤

(٣) **البخاري**، فرض الخمس، ١؛ **مسلم**، الجهاد، ٥٢؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٩/٢١١؛ «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ٨/٢٩؛ «**الإصابة**» لابن حجر ٤/٣٧٩

كبيرين . وتموج هذا الحب من هذه الدائرة الضيقة المحيطة به، وتوسع حتى شمل العالم بأسره، وكان هذا بُعداً آخر من أبعاد شمولية الحب عنده.

تصوروا أنه عندما توفي لم يترك بيتاً واحداً لزوجاته، إذ عشن حياتهن معه في غرف صغيرة.. هذه الغرف الصغيرة هي ما ورثنه منه ﷺ.. هكذا ترك سيد المرسلين زوجاته في مثل هذا الفقر والضنك وارتحل عنهن، غير أنه ما من واحدة منهن اشتكت بكلمة واحدة طوال حياتها من بعده من هذا الفقر. ومع أن هذا الأمر خطر ببال واحدة أو اثنتين منهن، إلا أن تنبيه القرآن الكريم لهن أزال من رؤوسهن هذا.[1] وقام أبو بكر ﷺ بإعطاء شيء لهن من بيت المال، و لم يكن هذا بالشيء الكثير، بل كان من قبيل ما يعطى لأي فرد من المسلمين، و لم يجعل أعطياتهن مثل أعطيات السابقين إلى الإسلام بل دونها بكثير، كان هذا هو اجتهاده. ولكن عندما جاء عمر بن الخطاب ﷺ إلى الخلافة جعل راتبهن من رواتب الصف الأول من المسلمين، إذ رأى أنه وإن لم يَكُنَّ من السابقات إلى الإسلام إلا أنهن يستحققن رواتب السابقين للإسلام لكونهن من أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ،ولكونهن أمهات المؤمنين حتى يوم القيامة وكان هذا هو اجتهاد عمر ﷺ في هذا الموضوع، إلا أن هذا ليس موضوعنا، فالقضية الأولى التي تهمنا في هذا المجال هي المستوى الرفيع الذي إليه نتيجة تربية الرسول ﷺ لهن. فما هذه التربية التي دخلت إلى قلوب هذه النسوة وأرواحهن بحيث

---

(١) انظر الآيتين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ۞ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ (الأحزاب: ٢٨-٢٩).

أصبحن لا يفكرن في شيء غير رسول الله ﷺ مع أن صحبتهن له لم تستغرق كثيراً، علماً بأنه لم يعطهن من الدنيا سوى ما تقدم ذكره إذن، فقد كان لدى رسول الله ﷺ جاذبية مختلفة تماماً.. جاذبية تسحر ما حولها، وكان هذا الأمر أحد جوانب رسالته.

إن تعدد زوجات الرسول ﷺ دليل من أدلة رسالته، ولكوننا سنتعرض لهذا الموضوع فيما بعد فإننا لن نبحث هذا هنا، ولكننا نكتفي هنا بالقول بأن البيت المبارك للرسول ﷺ أصبح مدرسة لتعليم المسائل المتعلقة بالنساء. فالأوضاع الخاصة له كانت تُعرَف ضمن هذا النطاق الشخصي والخاص ثم تنقل فيما بعد إلى أمته. إن تسعين بالمائة من الأحكام المتعلقة بالحياة الأسرية نقلت إلينا من قبل الزوجات الطاهرات للرسول ﷺ، لذا فقد كان من الضروري وجود نساء من مختلف المستويات والقابليات في بيته، ولكي لا تضيع الأحكام الدينية الخاصة بالنساء والعائلة فقد تحمَّل ﷺ الزواج من عدة نساء بعد أن جاوز سنه ثلاثة وخمسين عاماً.

أجل، لقد كانت هناك ضرورة ماسة لوجود عدة نساء في بيت رسول الله ﷺ، ذلك لأن الرجال كانوا يرونه ويستمعون إليه في المسجد على الدوام. فإن فات أحدَهم حضورُ مجلس واحد من مجالس الرسول ﷺ، قام أصحابه بتدارك الأمر ونقل كل ما دار في ذلك المجلس إليه. ولكن النساء كن محرومات من مثل هذا الامتياز إذ لم يكن متاحاً لهن الاستماع إلى الرسول ﷺ في كل حين.. إذن، فمن يستطيع نقل الأحكام.. ولاسيما ما يتعلق منها بالنساء إليهن؟ ومن كان يستطيع نقل الحياة الخاصة للرسول ﷺ والأوضاع المتعلقة بطبيعته وأدبه في

غرفة نومه إلى أمته؟ وهل كان باستطاعة امرأة واحدة فهم الـــدين وأحكامـــه ونقله كاملا بكل أسسه ونظمه؟ وبما أنهن كن متعرضات –حـــسب الطبيعـــة البشرية– للأعراض التي تصيب النساء الأخريات فإن الأحكام الخاصة الجديدة العائدة للنبي ﷺ تجاه هذه الأمور ما كان بإمكان امرأة واحدة القيـــام بهـــذه المهمة. وما كانت امرأة واحدة تكفي لإيضاح هذه الأمور وهذه الأحكـــام. لذلك فقد كانت هناك ضرورة ماسة لمكوث عدة نساء قريبات من الرســـول ﷺ يراقبن أحواله عن كثب وعن قرب ثم ينقلنها إلينا، لقد كانت هذه ضرورة دينية محضة، و لم تكن لها علاقة بالحاجة البشرية للرسول ﷺ. وكان هذا هـــو السبب في تحمل رسول الله ﷺ لهذا العبء الثقيل.

وبالإضافة إلى كون هؤلاء النسوة وسيلة لربط أقوامهن وقبائلهن برســـول الله ﷺ بأواصر القرابة فقد أصبحن وسيلة أيضاً لحفظ مئات بـــل آلاف مـــن الأحاديث الشريفة. ونستطيع أن نقول بكل اطمئنان وتأكيد بأن عالم النـــساء مدين لنساء الرسول ﷺ بالشيء الكثير، ومهما فعلن فلن يـــوفيهن حقهـــن.. أجل، فهذه هي درجة خدمتهن للدين.

ومن ثم فإن زواج الرسول ﷺ بهن لم يكن نتيجة أهواء بشرية أو حاجات جسدية؛ ذلك لأنه من غير الممكن وجود حاجة لشخص يبلغ عمـــره ثلاثـــاً وخمسين سنة للزواج من عدة نساء في بلد حار مثل الجزيزة العربية. و لم يكـــن زواجهن منه أيضاً نابعاً من رغبات دنيوية أو جسدية، ذلك لأنه كان يعـــيش عيشة أفقر الناس، وكانت نساؤه يعرفن هذا ويطلبن الزواج منه على الرغم من هذا، وكان رسول الله ﷺ يعدل بينهن فلا يبقى عند أي واحدة منهن ســـوى

يوم واحد في الأسبوع، ومع ذلك كانت كل واحدة منهن ترى أن رسول الله ﷺ كان أطلق الناس وجهاً وبشاشة وألطفهم مع نسائه.

ألم يكن من حق هؤلاء النسوة أن يبدين بعض الغضب وبعض الحدة لعدم وجود ما يطعمنه في البيت مدة طويلة ولاضطرارهن إلى لبس الملابس نفسها مدة طويلة؟ من يقرأ التاريخ والسيرة يرى أنهن كن راضيات بالعيش مع الرسول ﷺ رغم كل هذه الأمور. ومع كل المهابة والوقار الموجودين في شخصية رسول الله ﷺ فإنه كان يلاطف نساءه ويشعرهن بقربه منهن واهتمامه بهن، ومع هذا فقد أبقى هناك ستاراً رقيقاً على الدوام، وهو الستار الناشئ عن ارتباطه بالله وما ينتجه هذا الارتباط من الجو الذي يفوح منه جو الحياة الأخروية ذلك لأنه كان نبيا، وكانت نساؤه -قبل كل شيء- جزءاً من أمته. لم يكن في الإمكان ملء الفجوة الحاصلة معه في علاقته معهن، إذ كان فريداً وممتازاً في هذا أيضا، فلم يكن في مقدور نسائه تصور عالمهن من غيره.

عقد النبي ﷺ نكاحه على سودة بنت زمعة في مكة، أي أصبحت الزوجة الثانية للرسول ﷺ وأُمّاً للمؤمنين، ولكن لسبب مّا أراد النبي ﷺ أن يطلقها. فلما سمعت سودة بذلك أحست وكأن صاعقة نزلت على رأسها فأرسلت إليه من يكلمه في شأنها ثم أسرعت إليه وقالت له: يا رسول الله مالي رغبة في الدنيا إلا لأحشر يوم القيامة في أزواجك فيكون لي من الثواب ما لهن." ووهبت يومها لعائشة رضي الله عنها.(١)

---

(١) **البخاري**، النكاح، ٩٨؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٢٤٦/٩

فاستجاب الرسول ﷺ لرجائها وأبقاها عنده. هذا هو الموقع الذي بلغه النبي ﷺ في قلوبهن، فلو طلق إحداهن لبقيت عند عتبة داره تنتظره إلى آخر عمرها.

وعندما أحس نوعاً من الشكوى من حفصة رضي الله عنها قال: «إن أرادتْ سرّحتُها»، فكان كلامه هذا كافياً لكي يقلب عالم حفصة رأساً على عقب، وتدخل الوسطاء ورجوه عدم تطليقها لأنها امرأة صالحة صوامة قوامة فاستجاب الرسول ﷺ لهم وأبقى على بنت أوفى صحابته ضمن زوجاته.(1)

كن يعتبرن فراق رسول الله ﷺ مصيبة أمرّ من الموت. وهذا الشعور كان مشتركاً بينهن و لم يكن هناك أي استثناء بينهن. ذلك لأن النبي ﷺ احتلّ في قلوبهن محلاً وموضعاً لا يمكن تعويضه أو تبديله أبداً؛ فقد أصبح جزءاً لا يتجزأ من حياتهن ومن كيانهن، إذ عاش معهن عيشة حياة فطرية سليمة وطبيعية وبخلق لين هين سهل. ولو افترقن عنه لأصبحن مثل إنسان محروم من الهواء يكاد يختنق.

والمنظر الذي نراه بعد وفاته ﷺ هو هذا المنظر.. منظر الفراق الأليم والهجران الموحش، ففي كل مرة يزور فيها أبو بكر وعمر ﷺ إحدى أمهات المؤمنين كانا يشاهدانها تبكي بحرقة فيجلسان ويبكيان معها، وقد دامت حال البكاء هذه حتى نهاية حياتهن.. كان هذا هو الأثر الذي استعصى على الزوال والذي تركه رسول الله ﷺ في قلوبهن. ومع أن مدة بقائه معهن لم تكن طويلة

---

(١) **أبو داود**، الطلاق، ٣٨؛ **النسائي**، الطلاق، ٧٦؛ **ابن ماجه**، الطلاق، ١؛ **الدارمي**، الطلاق، ٢؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٢٤٤/٩

إلا أنه أصبح بالنسبة لهن منبعاً للحياة... وهذا هو ما أردنا التأكيد عليه.. أي أن رئاسته ﷺ للعائلة كانت أيضاً تجهر بحقيقة كونه رسولاً لله تعالى.

مرت فترة وُجدت معه تسع من الزوجات حيث استطاع إدارتهن بحيث لم تظهر أي مشكلة جدية في البيت.. فقد كان رئيس عائلة رقيق الحاشية موفقاً ومحبوباً. قبل وفاته بعدة أيام خطب رسول الله ﷺ الناس وقال: «إن الله خيّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله» فما أن سمع أبو بكر رضي الله عنه هذا -وكان صاحب ذكاء وفطنة- حتى أجهش بالبكاء.[١] ذلك لأنه علم أن العبد المخيَّر هو رسول الله ﷺ. و لم يطل مرضه، إذ اشتد هذا المرض يوماً بعد يوم، وبدأ يتقلب من ألم صداع شديد.. وحتى في هذه اللحظات لم يترك سلوكه الرقيق تجاه زوجاته فطلب منهن الإذن في البقاء في غرفة عائشة لعدم استطاعته زيارتهن، فوافقن على طلبه. وهكذا قضى الرسول ﷺ آخر آيامه في غرفة عائشة رضي الله عنها...[٢] أجل، لقد راعي حقوق زوجاته حتى في أصعب الظروف... هكذا كان إنسان روح وأدب ورقة.

ب. **القيمة التي أعطاها لزوجاته**

ليس هناك مثيل آخر للقيمة التي أعطاها رسول الله ﷺ للمرأة لا من قبل ولا من بعد. فلو زار في إحدى الليالى إحدى زوجاته للسؤال عنها فإنه كان يطوف على زوجاته الأخريات أيضاً للسؤال عنهن. إذ لم يكن يظهر أي فرق

---

(١) **البخاري**، الصلاة، ٨٠، فضائل أصحاب النبي، ٣؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٢

(٢) **البخاري**، الوضوء، ٤، الأذان، ٩؛ **مسلم**، الصلاة، ٩١-٩٢

من ناحية معاملته لهن. وكانت كل واحدة منهن ترى أنها أقـرب إلى قلـب الرسول ﷺ. وكان هذا ينبع من مروءته التي لا مثيل لها. غير أنـه لمـا كـان الإنسان عاجزاً عن التحكم في قلبه، فإن تكليفه بما لا يطـاق لم يكـن وارداً. لذلك كان الرسول ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول مستغفراً الله: «اللّهـم هذه قسمتي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك.»[1]

ما أروع هذا اللطف وهذه الرقة وهذا الظرف! وأنا أسألكم هل راعيـتم مثل هذه الدقة في المعاملة بين بنتين من بناتكم أو بين ولدين من أولادكـم..؟ اسمحوا لي أن أقول "لا" نيابة عنكم.. أجل، "ألف مرة لا" ليس هذا فقط، بل إننا إن استطعنا ضبط عواطفنا وعدم إظهارها عددنا هذا من مفاخرنا وعلامـة على قوة إرادتنا، بل ربما تحدثنا فخورين بذلك بينما يستغفر رسول الله ﷺ ربه لاحتمال خطور ميل أكثر بباله نحو إحداهن.

لقد نفذت رقته هذه وأدبه الجم إلى قلوب نسائه، فأحدث فراقـه عنـهن جرحاً لا يندمل في أرواحهن ووجدانهن. ولو لا أن الإسلام يحرم الانتحار لربما أقدمن عليه. ولكن الدنيا أصبحت لديهن بعد فراقه دار حزن وهجران وغربة.

والحقيقة أن رسول الله ﷺ كان وقوراً ورقيقاً مع جميع النسـاء، وكـان يوصي الجيمع باتباع هذا السلوك، وكان يطبق عملياً مع نسائه مـا يوصـيه للناس. وكمثال على هذا يورد البخاري الحادثة التالية عن محمد بن سعد عـن

---

(١) **النسائي**، عشرة النساء، ٢؛ **أبو داود**، النكاح، ٣٧، ٣٨؛ **الترمذي**، النكاح، ٤٢؛ «**الطبقـات الكبرى**» لابن سعد ٢٣١/٢

أبيه سعد بن أبي وقّاص قال: استأذن عمر بن الخطاب ﷺ على رسول الله ﷺ وعنده نسوة من قريش يسألنه ويستكثرنه، عالية أصواتهن على صـــوته، فلمـــا استأذن عمر تبادرن الحجاب فأذن له النبي ﷺ فدخل والنبي ﷺ يضحك فقال: أضحك الله سِنَّكَ يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ فقال: «عَجِبْتُ من هـــؤلاء اللاتي كن عندي لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب.» فقال: أنت أحق أن يهبن يا رسول الله. ثم أقبل عليهن فقال: يا عدوات أنفسهن أتهبنني و لم تهبن رسول الله ﷺ؟ فقلن: إنك أفظُّ وأغلظ من رسول الله ﷺ.[1]

والحقيقة أن عمر ﷺ لم يكن يتصرف بخشونة أو بفظاظة، إذ كان هـــين الطبع مع النساء، إلا أنه كما أن أجمل الناس إن قيس بيوسف ﷺ يبدو قبيحاً فكذلك كان لين عمر ﷺ عندما يقارن مع لين وحلـــم الرســـول ﷺ يبـــدو خشونة وفظاظة... أي أن هذا الحكم كان نسبيا، إذ لا يمكن مقارنـــة أحـــد برسول الله ﷺ. أجل، لقد تعودن على ظرف الرسول ﷺ وعلى رقته وحلمه، ومن ثم كانت تبدو لهن تصرفات عمر ﷺ خشنة، هذا علما بأن عمر ﷺ كان من المؤهلين لحمل عبء خلافة رسول الله ﷺ في المستقبل، وعندما أصبح فعلاً خليفة أعطى أفضل النماذج بعد نماذج الأنبياء عليهم السلام، إذ كان من خلقه وطبعه البحث عن الحق وعن العدالة، وأن يكون سيفاً قاطعاً يفرق بين الحـــق والباطل. كانت لعمر ﷺ طبيعة خاصة أهلته لتسلم منصب الخلافـــة، وهـــذه الطبيعة قد تبدو للبعض قاسية بعض الشيء. ولكن هذا الخلق أو هذا الطبع هو الذي ساعده على حمل أعباء الخلافة بكل نجاح.

---

(١) **البخاري**، الأدب، ٦٨؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٢٢

ج. **استشارته لنسائه**

كان الرسول ﷺ يجلس ويتحدث مع نسائه، وأحياناً يتذاكر معهــن بعــض المسائل. و لم يكن في الحقيقة في حاجة إلى آرائهن لأنه كان مؤيــداً بــالوحي، ولكنه كان يريد أن يعلم أمته أمراً، وهو رفع مكانة المرأة؛ وذلك خلافاً لما كانت عليه سابقاً، وبدأ هذا عملياً في بيته.

بدا صلح الحديبة قاسياً جدّاً للمسلمين إلى درجة أنه لم يبق هناك عند أحد منهم قدرة على النهوض من مكانه. في هذه الأثناء أمر رسول الله ﷺ من نوى العمرة القيام بذبح ذبيحته والخروج من الإحرام. غير أن الصحابة تبــاطؤا في هذا على أمل أن يكون هناك تغيير لهذا القرار.. كرر النبي ﷺ الأمر ثانية، غير أن الصحابة بقوا على الأمل نفسه.. لم يكن هذا معارضة للرسول ﷺ. ولكنهم كانوا ينتظرون ويأملون في أمر آخر. إذ أنهم خرجوا من المدينــة علــى أمــل الطواف حول الكعبة. وما قيل في الحُديبية كــان مــن الممكــن –حــسب اعتقادهم– أن يتعرض لبعض التبديل والتغيير قبل وضع الاتفاقية موضع التنفيذ.

عندما شاهد النبي ﷺ هذا الأمر لدى الصحابة دخل خيمتــه واستــشار زوجته أم سلمة التي كانت امرأة ذات فطنة واسعة. وأبدت أم ســلمة رأيهــا لإعطاء المشورة حقها وهي تعلم أن الرسول ﷺ ليس بحاجة إلى ما تقول، وإنما كان الرسول ﷺ يريد أن يعلم أمته درساً اجتماعياً بمشورته هذه مع إحــدى نسائه. قالت أم سلمة: "يا نبي الله! أتحب ذلك. أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك." كان هذا هو ما يفكر بــه

الرسول ﷺ، لذا أخذ سكّينة وخرج فنحر بدنه وحلق شعره. فلما رأى الصحابة ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غما.[1] فقد علموا أخيراً أن القرار نهائي ولا رجعة فيه.

وأنا أريد أن أسألكم: أيكم يلتفت مثل هذه الالتفاتة الكريمة لزوجته؟ كم رئيس دولة استشار زوجته في الأمور الخطيرة لبلده؟ كم رب عائلة يضع في منهجه في إدارة البيت التشاور مع زوجته؟ ونستطيع أن نكثر من هذه الأسئلة ونوجهها إلى كل وحدة من وحدات المجتمع.. فليسمع هذا كل أصحاب الأصوات المنكرة التي تدعي بأن الإسلام يقوم بأسر المرأة، وأنا أتساءل: أي نصير من أنصار المرأة استطاع الارتفاع إلى هذا المستوى؟

ومثل أي أمرٍ خيرٍ آخَر فإن الشورى والمشورة طُبِّقت في بادئ الأمر في بيت رسول الله ﷺ، إذ كان يستشير زوجاته، ولم نَصلْ نحن بعدُ إلى مستوى هذا الأمر ولا نعرف كيف نفتح مغاليق هذا الباب السري؛ بل لم نصل بعد إلى الطَرْق على هذا الباب. أجل، فلا تزال المرأة –حتى لدى الذين يدّعون الدفاع عن حقوقها– إنساناً من الدرجة الثانية؛ بينما نحن ننظر إليها باعتبارها نصف الوحدة الواحدة. فهي النصف الذي لا ينفع النصف الآخر بدونه، ومن اجتماع النصفين يتم تشكل الوحدة الإنسانية الواحدة. وعند غياب هذه الوحدة الواحدة لا يمكن الحديث عن وجود أي شيء.. لا الإنسانية ولا الأنبياء ولا الأصفياء ولا الإسلام ولا الأمة.

---

(١) **البخاري**، الشروط، ١٥

وكان الرسول ﷺ يتصرف بلطف مع النساء فإنه بأحاديثه كان يشجع مثل هذا التصرف. يقول في أحد أحاديثه: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم لنسائهم خياركم خُلقاً.»[1] وهكذا يظهر أن قضية المرأة إن حققت ما تصبو إليه في تاريخ الإنسانية فقد حققته في العهد النبوي.

د. حادثة التخيير

وهي حادثة تخيير رسول الله ﷺ نساءه في إمضاء حياقمن معه أو مفارقتهن له. ومهما كان مبدأ هذه الحادثة فإنها كانت أمراً من الله تعالى لرسوله. فالآية الكريمة التي نزلت في هذا الخصوص تقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ۞ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ (الأحزاب: ٢٨-٢٩).

فقد طالبت نساءُ النبي ﷺ زيادة نفقاتهن، إذ دارت بخلدهن: ألا نستطيع نحن – مثل سائر المسلمين– العيش بقليل من الرفاهية، مثل تناول طبق من الحساء كل يوم؟ ألا يمكن أن تكون ملابسنا أفضل قليلا؟ ولما كانت هذه المطالب مشروعة وضمن دائرة الحلال فقد بدت لهن مطالب طبيعية وبريئة، ولكن فاتهن أنهن في بيت سيبقى حتى يوم القيامة أنموذجاً للبيوت الإسلامية، وأنهن يمثلن مركز هذا الأمر وقلبه، لذا فلا يمكن أن يتصرفن مثل سائر نساء المسلمين، ذلك لأنهن من المقربات، وحسنات الآخرين تعد سيئات بالنسبة إليهن.

---

(١) **الترمذي**، الرضاع، ١١؛ **أبو داود**، السنة، ١٥؛ **الدارمي**، الرقاق، ٧٤

ما إن أحس الرسول ﷺ هذا حتى اتخذ منهن موقفاً محدداً.. اعتزلهن وحلف ألا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن واعتكف في مشربة البيت. وانتشر الخبر بسرعة، وعم الحزن الجميع، وسارع الكثيرون إلى المسجد وهم يبكون، ذلك لأن المسلمين كانوا يبكون لأقل حزن يصيب رسول الله ﷺ.. هكذا كان الْتحام المسلمين معه. وكان أقل كدر يحدث له في بيته سرعان ما يسمعون به فيحزنون ويغتمون ويبدأون بانتظار زوال ذلك الأمر بفروغ صبر.. وكان هذا هو ما حدث في ذلك اليوم. ويطلق اسم حادثة "الإيلاء" أيضاً على هذا التصرف من رسول الله ﷺ. وهناك من ينظر إلى هذه الحادثة من زاوية أخرى. وكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في إطار هذه الحادثة، لأن بنت كل منهما كانتا ضمن زوجات النبي ﷺ. لذا، فما أن سمعا بالنبأ حتى أسرعا إلى المسجد مثل غيرهما.

طلبا الإذن للدخول على رسول الله ﷺ فلم يؤذن لهما، فبدءا ينتظران في المسجد مثل غيرهما من المسلمين. وفي الطلب الثالث أذن لهما وبدأ كل منهما يجأ عنق بنته ورسول الله ﷺ يقول: «هن حولي كما ترى يسألنني النفقة.»[1] هذا علماً أن القرآن يقول لهن: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ (الأحزاب: ٣٢).

فقد ينجو الآخرون بأداء الفرائض فقط، ولكن من كانت في بؤرة هذا الأمر، وضمن حرمه ﷺ ممن يعرفن أسرار الكثير من الأمور يجب أن يضحين بكيانهن في هذا السبيل لكي لا يظهر أي ضعف في المركز. أجل، إن كون

---

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ٣/٣٢٨

إحداهن زوجة للرسول ﷺ له جوانب إيجابية ولكن له مسوؤليات ثقيلة أيضاً. وكان الرسول ﷺ يهيئهن لكي يكن قدوات حسنات ولكي لا يصيبهن الخسران ولا تنطبق عليهن الآية الكريمة ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ (الأحقاف: ٢٠). فكان يريد صيانتهن وحفظهن من هذا المنزلق. لذا، فقد كانت المعيشة في بيت الرسول ﷺ يسودها الضيق من بعض الوجوه. وبسبب هذا الضيق ترتفع أحياناً بعض الطلبات بشكل ضمني أو صريح. غير أن أوضاعهن لم تكن مثل الآخرين فهناك أوضاع خاصة كانت تجلب معها بعض المسؤوليات.. فما كان بمقدور إحداهن أن تضحك مثل الآخرين ولا أن تأكل مثل الآخرين. هذا علماً بأن بعض كبار الزهاد لم يضحكوا في حياتهم إلا مرة أو مرتين و لم يشبعوا مرة واحدة طوال حياتهم.

يقول أحد أصحاب الفُضيل بن عِياض: صحبت الفُضيل بن عِياض ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكاً ولا مبتسماً إلا يوم مات ابنه علي. فقلت له في ذلك فقال: "إن الله ﷻ أحب أمراً فأحببت ما أحب الله."[1]

فإذا كان هذا هو الوضع بالنسبة لعظماء الدين، من الطبيعي أن يكون وضع الزوجات الطاهرات لسيد الرسل ولأعظم العظماء شيئاً مختلفاً عن المعتاد.

ليس من السهل ولا من الميسور أبداً الوصول إلى درجة وإلى مرتبة اللياقة لمصاحبة الرسول ﷺ في الدنيا وفي الآخرة. لذا، دخلت هؤلاء النسوة المتميزات -حسب إشارة القرآن- إلى امتحان للإرادة وللعزم. فقد خيرهن الرسول ﷺ

---

(١) «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم ١٠٠/٨

بين العيش معه في فقر وفي ضيق وبين زينة الدنيا وملاذّها. فلو اخترن الـدنيا لمتعهن الرسول ﷺ ثم سرحهن سراحاً جميلاً. وإن اخترن الله ورسوله فعليهن الرضا بمستوى عيشهن، ذلك لأن هذا كان خاصية وصفة العيش في ذلك البيت. ولما كان هذا البيت بيتاً متميزا وبيتاً فريدا، لذا كان من الطبيعي أن يكون ساكنوه متميزين ومتفردين.. كان رئيس العائلة متميزاً بالطبع فاستوجب أن تتبعه الزوجات والأولاد.

كان أول من فاتح رسول الله ﷺ هي أمنا عائشة رضي الله عنها في الأمر إذ قال لها: «يا عائشة! إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك» ثم تلا عليها ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ۝ وَإِنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ (الأحزاب: ٢٨-٢٩). فقالت عائشة رضي الله عنها: "أوَ في هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة." وتقول أمنا عائشة رضي الله عنها: ثم فعل أزواج رسول الله ﷺ مثل ما فعلتُ.[1]

لقد كان جواب أزواج رسول الله ﷺ الجواب نفسه، ذلك لأنهن امتزجن وتوحدن مع الرسول ﷺ. فما كان باستطاعتهن قول شيء آخر. ولو قال لهن الرسول ﷺ بأن عليهن أن يصمن طوال حياتهن ولا يفطرن قط لما ترددن في قبول أمره ولنفذن طلبه بكل شوق وفرح وتحملن ذلك عن طيب خاطر.. وقد

(١) **البخاري**، المظالم، ٢٤؛ **مسلم**، الطلاق، ٢٢، ٣٥

تحملن كل المصاعب حتى أواخر حياتهن و لم يفطرن من ذلك الصوم الطويـــل حتى ارتشاف شراب الموت.

كانت من زوجاته من عشن حياة القصور أيضاً، وكانت صفية رضـــي الله عنها منهن، فقد فقدت أباها وزوجها في معركة "خيبر" وكانا من سادة خيبر، وأسرت صفية وصعب عليها كثيراً أن تكون ضمن الأســـرى، ولا شـــك أن الرسول ﷺ كان أكره شخص لديها في الدنيا حتى رؤيتها له. ولكن ما أن رأته حتى تغيرت مشاعرها وعواطفها نحوه.(١)

أجل، لقد كانت في بيت الرسول ﷺ زوجات مثل صفية تحملن العيش في بيت لا يستطعن فيه إشباع بطونهن مع أنهن قضين حياتهن في السابق في نعـــيم القصور، وشاركن غيرهن من الزوجات في نمط هذا العيش، إذ دخل رســـول الله ﷺ بخلقه الفذ إلى قلوبهن إلى درجة أنهن فضّلن العيش معه مع كل أنـــواع الفقر والحرمان. بل أصبح استمرار العيش معه غاية حياتهن وهدفها.

كانت صفية أم المؤمنين رضي الله عنها يهودية النشأة، وفي أحـــد الأيـــام خاطبتها زوجتان من زوجات الرسول ﷺ وهما تعيِّرانها بأنها كانت يهودية: "يا بنت اليهودي" فاشتكت صفية ذلك إلى رسول الله ﷺ، فطيّب رسول الله ﷺ خاطرها قائلاً لها: «ألا قلتِ فكيف تكونان خيراً مني وزوجـــي محمـــد وأبي هارون وعمي موسى؟.»(٢) وعندها خرجت صفية رضي الله عنها مـــن عنـــد

---

(١) «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ١٠٨/٢

(٢) **الترمذي**، المناقب، ٦٣

رسول الله ﷺ راضية النفس قريرة العين، ذلك لأن زوجها هو محمد ﷺ. ومن يدري كم من مرة تمتمت شفتاها بهذه الكلمات.

وخلاصة القول أن الرسول ﷺ أكثر وأكمل من رئيس عائلة مثالي. فإدارته لهؤلاء الزوجات بكل هذه السهولة واليسر وكونه محبوباً من قبلهن كلهن غاية الحب يشير إلى هذا.. فقد كان حبيب قلوبهن ومعلم عقولهن ومربي أرواحهن، وعندما كان يقوم بهذا لم يكن يفرط قيد شعرة بوظيفته تجاه الدولة وتجاه الأمة، وهذا دليل ساطع على نبوته، ولو لم يكن هناك دليل آخر لكانت رئاسته العائلية والخط الذي سار عليه دليلاً كافياً على ذلك.

الفصل الثاني: صفة الأبوة لدى النبي ﷺ

كان النبي ﷺ ذروة في كل مفصل من مفاصل الحياة وفي شؤونها جميعاً. وعندما يريد أي إنسان معرفته عليه أن يخترق قمم عظماء عصره ولا يقف إلاّ عند أعلى هذه القمم واعظمها مستعيناً بأجنحة خياله وإلاّ فاته فهمه وقصَّرَ في إدراكه. أجل، من أراد البحث عنه، عليه أن يبحث عنه في أُفقه. وليس بين مستويات الأشخاص العاديين من أمثالنا، ذلك لأن الله تعالى وهبه قابليات كبيرة في كل شأن من شؤونه.

عاش فخر الإنسانية مثل شمس ساطعة ثم غرب، فلم تر الإنسانية مثيلاً له من قبل ولن تراه من بعد. وكما لم تر الإنسانية هذا، كذلك لم يَر معاصروه والقريبون منه شخصاً إعجازياً كشخصه عليه الصلاة والسلام. وربما لم يدرك الكثيرون آنذاك غروبه إلاَّ بما تركه هذا الغروب في قلوبهم من وحشة، كمثل الزهرة المتعلقة حياتها بضوء الشمس لا تحس بغروب الشمس إلا بعد إحساسها بالذبول جراء انقطاع ضوء الشمس عنها... أحسوا بالوحشة ولكن الأمر كان قد فات وانقضى. ومن الطبيعي أن من يفهمونه ويعرفونه في أمته يزداد يوماً بعد يوم. وعلى الرغم من مرور ١٤ قرناً فلا نزال نقول "أُمُّنا" لخديجة، ولعائشة ولأم سلمة ولحفصة رضي الله عنهن جميعاً ونحس بلذة وببهجة من هذا القول أكثر من لذتنا عندما نخاطب أمهاتنا. ولا شك أن الشعور بهذه اللذة وبهذه البهجة كان أعمق في ذلك العهد وأكثر حرارة وإخلاصاً، وذلك من

أجله ﷺ. لذا، نرى أبا بكر ﷺ يخاطب ابنته عائشة قائلا لها: "يا أمـــي" لأن الآية الكريمة تقول ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب: ٦). نعم، لقد كان أبو بكر ﷺ يقول لبنته التي رباها في حجره "يا أمي".

ولكن كل هذا الحب وهذا التقدير الذي أحاط بهن لم يكن يجدي في إزالة حزنهن وألمهن من فراقه ﷺ. و لم تستطع الأيام الحلوة التي أتـــت بعـــد أيـــام الفتوحات في أن تقلل هذا الحزن العميق في قلوبهن.. بل استمر هذا الحزن حتى غروب حياة كل واحدة منهن. وكما كان زوجاً مثالياً لزوجاته، فقد كان أبا مثالياً أيضا.. وعلى المقياس نفسه كان جداً مثالياً لا يوجد له نظير أو شبيه.

كان يعامل أولاده وأحفاده بحنان كبير، و لم يكن ينسى وهو يعطي كـــل هذا الحنان أن يوجه أنظارهم إلى الآخرة وإلى معالي الأمور. كـــان يـــضمهم لصدره ويبتسم لهم ويداعبهم، ولكنه في الوقت نفسه لم يكن يغض طرفه عـــن أي إهمال لهم حول شؤون الآخرة، وكان في هذا الأمر واضحاً جدّاً وصـــريحاً جدا، ووقوراً ومهيباً وجادا فيما يتعلق بصيانة العلاقة بينه وبين خالقه. فمـــن جهة كان يعطي الحرية لهم ويرشدهم إلى طرق العيش بشكل يليق بالإنـــسان، ومن جهة أخرى كان لا يسمح بانفلات الانضباط أو سلوك طريق اللامبالاة. ويبذل كل جهوده وبكل دقة لمنع إصابتهم بأي تعفن خلقي، ويهيئهم لعـــوالم علوية وللحياة الأخروية. وفي أثناء هذه التربية كان الرسول ﷺ يحـــذر مـــن الوقوع في الإفراط أو التفريط، بل يختار الطريق الوسط ويمثل الصراط المستقيم. وكان هذا بُعداً آخر من أبعاد فطنته.

أ. **شفقته على أولاده وأحفاده**

يروى مسلم عن أنس بن مالك ﷺ الذي خدم رسول الله ﷺ عشر سنين ما يأتي "ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ " [(١)] أجل، كان يتصرف بشفقة ورحمة وعن عاطفة حقيقية نابعة من صميم قلبه بحيث لم يكن بوسع أحد أن يكون مثيلاً له لا في مجال رئاسته للعائلة ولا في مجال أبوته.

ولو كان هذا كلاماً صادراً منا فقط لكان من الممكن بقاء أهميته محدودة. إلا أن الملايين من أمته التي تعمقت الرحمة والشفقة في قلبها إلى درجة التورع عن إيذاء نملة.. هذه الملايين كلها تعلن وتعترف بأنه لم يكن هناك مثيل له ﷺ في احتضانه الوجود كله بشفقته ورحمته. صحيح أنه خلق بشراً من البشر. ولكن الله تعالى ألهمه ووضع في قلبه عاطفة الاهتمام بالوجود كله لكي يوطد علاقته مع الناس أجمعين. ولهذا كان رسول الله ﷺ مشحوناً بعاطفة قوية وباهتمام كبير تجاه أفراد بيته وتجاه الناس الأخرين.

وتوفي أولاده الذكور في حياته.[(٢)] وقد ولدت له أمنا مارية رضي الله عنها ولداً ذكراً فتوفي كذلك، وكان هذا آخرهم. وكان رسول الله ﷺ يجد وقتاً من بين مشاغله الكثيرة والمهمة فيذهب إلى مرضعة ابنه ويحتضن ابنه ويقبله ويداعبه ويشمه ويظهر له علامات حبه له.[(٣)] وعندما توفي ابنه احتضنه أيضاً وقد

(١) **مسلم**، الفضائل، ٦٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١١٢/٣

(٢) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٢٨/٥

(٣) **مسلم**، الفضائل، ٦٣؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٦١/٩

ملأت الدموع عينيه. ثم قال وهو ينظر إلى المستغربين لحزنه: «إن العين تـــدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونـــون.» وفي حديث آخر: «إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا» وأشار إلى لسانه.[١]

ولنكرر مرة أخرى فنقول إنه كان أرحم الناس وأكثرهم شفقة وحنانـــاً. كان الحسن والحسين ﵄ يركبان على ظهره ويطوف بهما.. هل تتـــصورون شخصاً في هذا المستوى يأخذ حفيده على ظهره ويكون لهمـــا فرســـاً أمـــام الآخرين؟ أما هو فكان يفعل هذا وكأنه كان يشير من بعيد الى ذلك الموقـــع الممتاز الذي سيناله كل من الحسن والحسين ﵄ في مستقبل التاريخ. وفي أحد الأيام وبينما كان الحسن والحسين ﵄ على ظهره دخل عليه عمر بن الخطاب ﵁ فقال لهما: نِعْمَ الفرس تحتكما. فقال الرسول ﷺ: «نعم الفارسان هما.»[٢]

يجوز أن الحسن والحسين ﵄ فهما ما قاله أو لم يفهمـــا، ولكنـــه كـــان يمدحهما هكذا. وفي إحدى المرات عندما قال أحدهما للحسن ﵁ وهو علـــى عاتق النبي ﷺ: يا غلام! نعم المركب ركبت. فقال رســـول الله ﷺ: «ونعـــم الراكب هو.»[٣]

أجل، لقد كان يظهر عناية واهتماماً خاصين بهذين الإمامين من أهل البيت

(١) **البخاري**، الجنائز، ٤٤، ٤٥؛ **مسلم**، الفضائل، ٦٢، ٦٣، الجنائز، ١٢؛ **ابن ماجه**، الجنـــائز، ٥٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٩٣/٣؛ **أبو داود**، الجنائز، ٢٤

(٢) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٨٢/٩

(٣) «**كنز العمال**» للهندي ٦٥٠/١٣

الحسن والحسين رضي الله عنهما اللذين لهما الشرف والعزة والكرامة في كونهما أبوين لجميع الأولياء الذين سيظهرون حتى يوم القيامة. لذا، كان يحملهما على كتفه من حين لآخر، ولا شك أن لجميع أهل البيت ولجميع الأولياء نصيباً من هذا الاهتمام. وعن جابر قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يمشي على أربعة وعلى ظهره الحسن والحسين رضي الله عنهما وهو يقول: «نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما.»[1] لقد كانت هذه هي منزلة أولاده وأحفاده عنده، فدخل حبه إلى قلوبهم وأصبح مظهراً وموضعا لحب يتجاوز علاقة الأبناء والأحفاد.

وكما كان في جميع الأمور فقد سلك رسول الله ﷺ الطريق الوسط في موضوع تربية الأطفال. فقد كان يحب أولاده وأحفاده حباً جماً ويُشعِرهم بحبه، ولكنه لم يكن يسمح بأي استخدام سيء لهذا الحب. هذا علماً بأنه لم يكن يوجد بين أولاده وأحفاده من يحاول هذا أصلاً. غير أنه عندما يقومون بتصرف خاطئ من دون عمد نرى مِن تصرّف رسول الله ﷺ وكأن ضباباً من الوقار لف هذا الحب العميق. وبسلوك ملئه الدفء يسعى لمنعهم من التجول الى مناطق الشبهات. فمثلاً مد الحسن رضي الله عنه وهو طفل صغير يده إلى تمر صدقة، فأسرع رسول الله ﷺ وانتزع تلك التمرة من فيه قائلاً له: «أما علمتَ أن الصدقة لا تحل لآل محمد.»[2] فقد رباهم منذ الصغر على التوقي من الحرام وإبداء منتهى الحساسية في هذا الموضوع، وهذا من أفضل الأمثلة على إقامة التوازن التربوي منذ الصغر. وفي كل مرة كان يدخل فيها المدينة كنت تراه

---

(١) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٨٢/٩

(٢) **البخاري**، الزكاة، ٥٧؛ **مسلم**، الزكاة، ١٦١؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٧٩/٢

وقد ركب معه على مركبه بعض الصبيان ملتفين حوله.[١] فلم يقصر رسول الله ﷺ حبه على أولاده وعلى أحفاده فحسب، بل على أولاد وصبيان جيرانه وغير جيرانه أيضاً.

لم يكن أولاده الذكور وأحفاده هم الداخلين فقط ضمن دائرة حبه وحنانه، فقد كان يحب حفيدته أُمامة مثلما يحب حفيديه الحسن والحسين ﷺ فكثيراً ما شوهد وهو يخرج من البيت وعلى كتفه أُمامة. وكان يحملها أحياناً على ظهره وهو في صلاة النافلة فإذا ركع وضعها على الأرض وإذا قام رفعها.[٢] كان رسول الله ﷺ يظهر حبه لأُمامة في مجتمع كان الناس فيه حتى عهد قريب يئدون البنات. لذا، كان هذا التصرف منه تصرفاً جديداً غير مسبوق من قبل أحد آنذاك.

ب. **حبه وحنانه تجاه فاطمة** رضي الله عنها

ليس في الإسلام تفاضل بين الذكر والأنثى، وهذا هو ما أظهره الرسول ﷺ بنفسه. ففاطمة هذه كانت بنته وأم أهل البيت حتى يوم القيامة وهي والدتنا. كانت فاطمة عندما تقبل على رسول الله ﷺ وتزوره يقوم لها ويأخذ بيدها ويجلسها بجانبه ويسأل عنها وعن أحوالها ويظهر حبه لها، وعندما تقوم يقوم معها ويودعها بكل لطف.[٣]

---

(١) انظر: «**حياة الصحابة**» للكاندهلوي ٦٨٨/٢-٦٨٩

(٢) **البخاري**، الأدب، ١٨؛ **مسلم**، المساجد، ٤١-٤٣

(٣) **مسلم**، فضائل الصحابة، ٩٨؛ **البخاري**، المناقب، ٢٥؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٢٠٣/٩

رغب علي بن أبي طالب ﷺ مرة الزواج من بنت أبي جهل. صـــحيح أن هذه المرأة كانت قد دخلت الإسلام مثل أخيها عكرمة فالتحقت بقافلة النور. ولكن هذا الزواج كان من الممكن أن يضايق فاطمة رضي الله عنها. ويجوز أن علياً ﷺ لم يخطر على باله قط أن فاطمة يمكن أن تستاء من مثل هذا الزواج. ولكن عندما أتت فاطمة إلى رسول الله ﷺ تخبره بالأمر وتظهر حزنها حتى همه أمرها وصعد المنبر وقال: «إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم عليّ بن أبي طالب. فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم. إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم. فإنما ابنتي بضعة مني يريبني مـــا رابهـــا ويؤذيني ما آذاها.»[1] وكان علي ﷺ من بين المستمعين فتراجع عن نيته تلك وعاد إلى فاطمة رضي الله عنها.

ولا شك أن عليا ﷺ كان يعز بنت رسول الله ﷺ معزة كبيرة، وكانـــت فاطمة رضي الله عنها تعرف هذا جيداً لذا، كانت تحبه أكثر مـــن نفـــسها. والحقيقة أن هذه المرأة الرقيقة كانت تبدو وكأن وظيفتها في الحيـــاة هـــي أن تكون بذرة لكل الأولياء والأصفياء. فكان جل اهتمامها منصباً على والـــدها وعلى دعوته. وعندما أخبرها والدها –وهو في أواخر أيام حياته– بأنه سيتوفى سبحت في بحر من الدموع. ولكن عندما أخبرها بأنها ستكون أول من يلتحق به غمرها الفرح والحبور.[2]

أجل، لقد كان والدها يحبها كثيراً وكانت بدورها تبادله الحب العميـــق.

---

(١) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ١٦؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٩٣

(٢) **مسلم**، فضائل الصحابة، ٩٨، ٩٩؛ **البخاري**، المناقب، ٢٥

ولكن رسول الله ﷺ كان عندما يحبها يعرف كيف يحفظ التوازن ويعدها لكي يوصلها إلى العالم الذي يجب أن ترتفع الأرواح وتسمو إليه، ذلك لأن الرفقة الأبدية لا تكون إلا هناك. ولم يترافق رسول الله ﷺ وابنته في الحياة سوى خمسة وعشرين عاماً. إذ توفيت فاطمة رضي الله عنها بعد ستة أشهر فقط من وفاة والدها وكان عمرها آنذاك خمساً وعشرين سنة فقط.[1]

ج. تهيئة أولاده للحياة الأبدية

كان رسول الله ﷺ يطلب الحياة الأبدية. أي يطلب ما تطلبه الفطرة التي أودعها الله في الناس جميعاً... أجل، إن الإنسان للخلود. وليس في الإمكان إشباع هذا الإنسان إلا بالحياة الخالدة وبصاحب هذه الحياة الخالدة... لذا، لا يطلب شيئاً غيره. وسواء أشعر بذلك أم لم يشعر فإنه لا يطلب غيره ولا يرغب في سواه. ومهما أعطيت هذا الإنسان فلن تستطيع إشباعه إلا عندما تعطيه الحياة الخالدة... ذلك لأن للإنسان آمالاً لا نهاية لها ورغبات لا تحد ولا تحصى، لذا فلن تستطيع إشباع هذا الإنسان مهما أعطيته. وهذا هو السبب في أن أساس رسالات جميع الأنبياء والمرسلين قائم على هذا النظام ذي البعد الأخروي. وعلى هذا الاعتبار فإن رسول الله ﷺ بينما كان يحمل لهم باقات السكينة والطمأنينة فإنه لم يكن ليهمل أبداً تهيئتهم للسعادة الأبدية والطمأنينة الأبدية. ويمكن رؤية هذا بكل وضوح في الحادثة التالية:

(١) **البخاري**، فرض الخمس، ١؛ **مسلم**، الجهاد، ٥٢؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٢١١/٩؛ «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ٢٩/٨؛ «**الإصابة**» لابن حجر ٣٧٩/٤

جاءت فاطمة رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ وفي عنقها سلسلة من ذهب فقال لها: «يا فاطمة! أيغُرُّكِ أن يقول الناس ابنة رسول الله وفي يدها سلسلة من نار.» ثم خرج ولم يقعد. أجل، فمن جهة كان يعزها، ومن جهة أخرى كان يعدها للحياة الأخروية الخالدة ويوجهها نحو الله وتكملة الحادثة هي: فأرسلت فاطمة بالسلسلة إلى السوق فباعتها واشترت بثمنها غلاماً فأعتقته، فحُدِّث بذلك فقال: «الحمد لله الذي أنجى فاطمة من النار.»(١)

لا شك أن قيام فاطمة بالتزين بسلسلة من الذهب لا يُعد حراماً، ولكن رسول الله ﷺ كان يريد أن يحفظها في دائرة المقربين، وتنبيه الرسول ﷺ لها يعود إلى هذا الأساس، وهو أساس التقوى والقرب من الله. وهو من جهة عدم الاهتمام بزينة الدنيا وشواغلها. ولكن الأهم هنا وجوب كونها أنموذجا وقدوة لائقة بأم أهل البيت وإظهار الحساسية الشديدة في هذا الخصوص. أجل، فليس من الهين أبداً أن تكون أما للحسن وللحسين ﷺ وللعابدين المشهورين من بعد أمثال "زين العابدين" الذين كانوا منارة هدى للناس. فرسول الله ﷺ كان يعدها لكي تكون أما لأهل البيت أولا ثم أما لقمم سامقة أمثال الشيخ الكيلاني ومحمد بهاء الدين النقشبندي وأحمد الرفاعي والشاذلي وغيرهم، فكأنه كان يقول لها: "يا بُنيتي! أنت ذاهبة لكي تكوني عروسة في بيت ستخرج منه سلسلة ذهبية من النسل المبارك، فدعي أنت هذه السلسلة الذهبية وكوني أُمّاً لهذه السلسلة الذهبية من النسل".. السلسلة الذهبية لرجال الطرق السامية أمثال الطرق النقشبندية والرفاعية والشاذلية وغيرها.

---

(١) **النسائي**، الزينة، ٣٩؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٥/٢٧٨

أجل، ليس من السهل أبداً أن تكون أمـــاً للأوليـــاء وللأصـــفياء وللأبـــرار وللمقربين. لذا، فقد كان رسول الله ﷺ أكثر حساسية في هذا الخصوص تجاه بيته وأكثر حزماً. فبتصرفه هذا كان -بجانب رأفته بهم وحنانه عليهم- يريد أن يوجه أنظارهم إلى عالم الآخرة، ويسد أمامهم جميع أبواب ونوافذ الشر أو الإثم أو السوء مهما صغر لكي يقصروا همهم على الآخرة ولسان حاله يقول لهم: يجب أن يكون الله غايتكم. إذ سيظهر من أمته من يقول بقول الشاعر:

"هذه الجنة التي يذكرونها

قصور عدة.. وبضعة حوريات

أعطها لمن يريدونها

أما أنا فأنت مُنايَ.. أنت"

ويقضون أعمارهم كلها تحت ألوان وفي ظلال هذه الحياة الأخروية. لـــذا، كان الرسول ﷺ يبعد كل من يحبه -نتيجة طبيعية لهذا الحب- من قـــاذورات الدنيا ويطهرهم منها، ويحوّل نظرهم واهتمامهم إلى العوالم العلوية ويهيـــئهم لرفقته هناك لأن «المرء مع من أحب.»(١)

فإذا كنت تحب محمداً ﷺ فستسلك طريقه، وإذا سلكت طريقه كنت معه في الآخرة. وهكذا فالرسول ﷺ بجانب حبه لهم كان يهيئهم لرفقتـــه هنـــاك. أجل، هناك حب، وهناك رأفة ولكن لا محل لأي تراخ في أي أمر من أمـــور

(١) **البخاري**، الأدب، ٩٦؛ **مسلم**، البر، ١٦٥

الآخرة... وهذا هو الصراط المستقيم... الصراط الوسـط أفـضل وأعـدل طريق... طريق على رأسـه رسـول الله ﷺ.

وجانب آخر من جوانب نظام تربيته يعرضه علينا الإمام البخاري ومـسلم ﷺ وذلك رواية عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن فاطمة رضي الله عنها شكت ما تلقى من أثر الرحى فأتى النبيَّ ﷺ سَبْيٌ فانطلقت فلم تجده، فوجدت عائـشةَ فأخبرتها فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيئ فاطمة فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبتُ لأقوم فقال: «على مكانكما» فقعد بيننا حتى وجدتُ برد قدميه على صدري وقال: «ألا أُعلِّمكما خيراً مما سـألتماني: إذا أخـذتما مضاجعكما تُكَبِّرا أربعاً وثلاثين وتُسَبِّحا ثلاثاً وثلاثين وتحمدا ثلاثاً وثلاثـين فهو خير لكما من خادم.»[1]

أي أنني أوجه نظركِ إلى العالم الأخروي، فلكي تصلي وتكـوني معـي في ذلك العالم أمامك طريقان: الأول هو عدم التقصير في أداء وظيفة العبودية تجاه ربك. والثاني القيام بإيفاء وظيفتك تجاه زوجك، فلو قام الخادم بإيفاء بعـض الخدمات لزوجك من الخدمات التي كان من المفروض عليك أداؤها فذلك يعني أن هناك نقصا ما عندك. علما بأن عليك أن تكوني ذات جناحين. لذا، عليك أن تفتشي عما يجعل الإنسان عبداً كاملاً لله، وكيف يكون إنساناً كاملاً يؤدي كل وظائفه دون قصور.

(١) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ٩؛ **مسلم**، الذكر، ٨٠، ٨١؛ **أبو داود**، الأدب، ١٠٠

كوني أولاً أمة[1] كاملة لله وأدي كل وظائف العبودية تجاهه، ثم كوني إنسانة كاملة بإيفائك حق جميع وظائفك تجاه زوجك عليّ الذي يحمل في صلبه كل المقربين من أهل الله حتى يوم القيامة.. اعملي هذا لكي تكوني في الجنة التي هي مكان كل الأخيار والكاملين.

ولا أملك نفسي هنا من الاستطراد وذكر شيء يخص عليّاً ﷺ، فقد زوجه رسول الله ﷺ ابنته دون تردد ذلك لأنه رأى فيه اللياقة لكي يكون زوجاً لفاطمة وصهراً له، لأنه كان سلطان الأولياء وخلق لكي يكون أبا للأولياء، ويروى في حديث ضعيف قول الرسول ﷺ لعلي: «إن الله ﷻ جعل ذرية كل نبي في صلبه وإن الله تعالى جعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب ﷺ.»[2]

أي ستقوم أنت بإدامة نسلي، وفي النتيجة فإن الذين يقطفون الثمرات سيذكرونك ضمن آل البيت عندما يذكرونني، لذا فإن نظرنا من هذه الزواية يكون من أطاع علياً ﷺ قد أطاع الرسول ﷺ، ومن أطاع الرسول ﷺ فإنه يكون قد أطاع الله. ثم إن الرسول ﷺ يذكر بشكل عام عن حق الزوج فيقول: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق.»[3]

ولو كان مثل هذا الشيء جائزاً لكان علي ﷺ أول من يستحقه، ولو

(١) **أمة**: عبدة. (المترجم)

(٢) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٧٢/٩؛ «**فيض القدير**» للمناوي ٢٢٣/٢؛ «**تاريخ بغداد**» للبغدادي ٣١٧/١

(٣) **أبو داود**، النكاح، ٤١؛ **الدارمي**، الصلاة، ١٥٩

قامت فاطمة رضي الله عنها باستخدام خادمة لكان معنى ذلك انكسار جناح من جناحيها، وبجناح واحدة ما كان بمقدورها أن تكون جديرة لان تكون أما للحسن والحسين ﵄ وللشيخ الكيلاني وللأقطاب المجددين والمجتهدين الذين سيظهرون حتى يوم القيامة. لذا، كان لا بد من قطع كل اهتمام لها بالدنيا وتوجيه كل نظرها إلى الآخرة.. وفي الحقيقة فإن الله تعالى فعل الشيء نفسه بالنسبة لرسول ﷺ ورباه على هذا النحو، إذ مات والده قبل أن يأتي ﷺ إلى الدنيا، وعندما فتح بصره على العالم لم يجد أباً يستند إليه ويستمد المعونة منه. وعندما بلغ السادسة من عمره فقد السند الآخر له، وفتح أمامه منذ بداية حياته الطرق المؤدية إلى نور التوحيد وإلى سر الأحدية. صحيح أن هناك فترة حماية عبد المطلب له، إلا أن هذه لم تكن سوى ستار العزة والعظمة الإلهية[1] من جهة وشرف للحامي، ولكن هذه الحماية لم تكن تعني من ناحية الأسباب شيئاً يذكر. لأن الحماية الظاهرية لأبي طالب –فيما بعد– لم تكن تتجاوز حماية الشخص لابن أخيه والوصاية عليه.. أما البعد الأخروي فهو نعمة كون أبي طالب أباً لعلي ﵁.. وبسبب هذه القرابة سيأتي يوم يقوم فيه النبي ﷺ بكفالة علي ﵁ وتربيته ويسمو به حتى يجعل منه الفارس الكرار والحيدر المغوار وسلطان الأولياء.[2] هكذا تعامل الله تعالى معه، إذ سحب جميع الأسباب لكي يوجهه إليه وحده ولكي يظهر عنده سر الآية الكريمة ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا

(١) يريد المؤلف أن يقول إن الله تعالى لا يظهر ظهوراً واضحاً في الحوادث، بل يجعل بينه وبين هذه الحوادث ستاراً وهو ستار الأسباب. (المترجم)

(٢) انظر: «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٦٢/١

وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرِ﴾ (الممتحنة: ٤)، فعليه أن يثق بالله ويعتمد عليه.

كانت فاطمة رضي الله عنها ابنته، لذا كان عليه أن ينقل لابنته التربية الـــتي تلقاها من الحق تعالى وأن يوجه نظرها إلى الله وحـــده وإلى الحياة الأخروية.

د. الجو العام للتربية في بيته الكريم

كان الطابع العام الذي يسري في جو بيته الكريم هو التقوى والخشية، فهذا الجو كان يسري في كل حركة وسكنة فيه. فمن استطاع مـــشاهدة نظـــرات رسول الله ﷺ رأى فيها غبطة الوصول إلى الجنة وخشية الوقوع في النار. ومن رآه في صلاته رآه يرتجف أحياناً إلى الأمام وأحياناً إلى الخلف مهتزا من خشية الله أو متولهاً بالشوق إليه.. كانت هذه المناظر المشاهدة من حياة هذا البيـــت؛ فمن رآه تذكر الله تعالى. ينقل النسائي الحديث التالي عن مُطَرِّف عن أبيه قال: "أتيت النبي وهو يصلي ولجوفه أَزِيز كأزيز المِرْجَل"، يعني يبكي.[1]

كان دائم البكاء في الصلاة متجهاً بأعماق قلبه إلى الله. وكم مـــن مـــرة افتقدته أمنا عائشة رضي الله عنها فوجدته وهو ســـاجد يـــسبح الله تعـــالى في خشوع.[2] ومن البديهي أن حاله هذه كانت تؤثر على أهل بيته تأثيراً إيجابيّـــاً وقويّاً من الناحية التربوية. فقد سرى هذا الخشوع والتقوى والخوف مـــن الله إلى نسائه وأولاده، ذلك لأن رسول الله ﷺ كان يعيش ما يقوله ويقـــول مـــا يعيشه. وليس هناك أحد استطاع أن يؤثر بسلوكه المطابق لفكره مثلمـــا أثـــر

(١) **النسائي**، السهو، ١٨؛ **أبو داود**، الصلاة، ١٠٧؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤/٢٥-٢٦

(٢) **مسلم**، الصلاة، ٢٢١؛ **النسائي**، عِشْرَة النساء، ٤

الرسول ﷺ في بيته. ولو جمع كل علماء النفس وعلماء التربية كل معلوماتهم من جميع النظم التربوية واستخدموها بأجمعها في تعبئة عامة لما استطاعوا أن يقتربوا في تأثيرهم إلى مستوى التأثير الذي أحدثه الرسول ﷺ في بيته.

أجل، لقد كان الرسول ﷺ يعبر بتصرفاته وسلوكه عما يريد أن يبلغه للناس ثم يترجم تصرفاته وسلوكه إلى الناس ويبلغها ويفهمها لهم... يريهم كيف تكون الخشية من الله وكيف تؤدى السجدة بكل خشوع وخضوع وكيف يكون الركوع. وكيف يكون الجلوس للتحيات وكيف يتبهل إلى الله في ظلمة الليل... كان رسول الله ﷺ يفعل هذا في بيته وعندما يكون بين أصحابه يرشدهم كيف يتصرفون وكيف يربون أطفالهم وكيف يكونون مرآة للحق وللحقيقة في كل أمر. فتجد أقواله صدى حسناً في بيته وبين أصحابه وتدخل إلى قلوبهم وتتشربها نفوسهم.

لقد كان قبل كل شيء أبا وجداً لا نظير ولا مثيل له.. وقد يبدو لنا هذا أمراً بسيطاً من الناحية الاجتماعية، إلا أنه في الحقيقة من أصعب العقبات التي يجب على الإنسان تخطيها، وكان رسول الله ﷺ في الصف الأول من الذين تخطوها بسهولة وبنجاح، فأصبح أفضل أب وأفضل جد. ثم إنه ربى أولاداً وأحفاداً جاء من صلبهم معظم رجال السلسلة الذهبية في التأريخ الإسلامي من الذين كانوا شموساً وأقماراً ونجوماً هادية. وهذه إحدى المزايا التي اختص بها رسول الله ﷺ، وتفرد بها بنعمة من الله وفضل منه، ولم يظهر من نسله مرتد واحد، وهذه مزية أخرى. علماً بأن عدد أفراد نسله يبلغ الملايين.

كم من رجال كبار من أهل الحقيقة نراهم فقراء من ناحية الأولاد الذين تربوا عندهم. إذ نرى أولادهم وأحفادهم وقد طغوا وضلوا سبيلهم وانحرفوا ووقعوا في مصائد الشيطان. ومن الممكن مشاهدة أمثلة كثيرة من هذا النوع حتى في أيامنا الحالية، بينما لم يقم أولاد الرسول ﷺ ولا أحفاده بخيانة المعنى والمثل والهدى الذي انبثق من البيت الذي نشأوا فيه. بل بقوا أوفياء لهذا البيت المبارك وللمعنى الذي مثله.[1] أجل، إن هذا الأمر دليل آخر من دلائل نبوته ﷺ، إذ مهما كان الإنسان ذكياً وعبقرياً فليس باستطاعته أن يكون مربياً بهذا المستوى الرفيع.

(١) إن ظهور بعض الأفراد الفاقدي التوازن من الذين استغلوا هذا النسب لا يجرح القاعدة العامة.

الفصل الثالث:

تربية الرسول ﷺ للناس وأسلوب تربيته

قبل أن ننتقل إلى الإطار العام لأسلوب تربية الرسول ﷺ لنلق نظرة سريعة على تفسير هذه الآية، ذلك لأنه من المستحيل علينا معرفة الذروة التي وصل إليها الرسول ﷺ في التربية دون أن نعلم مستوى الناس الذين قام بمخاطبتهم والتعامل معهم وتربيتهم ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢).

إن بعض الكلمات الواردة هنا تجذب الانتباه، إذ تبدأ الآية بضمير الغائب "هو"، ذلك لأن الناس آنذاك لم يكونوا يعرفون الله. فقد كانوا جاهلين وبدواً ومتخلفين، فلم يكن الله متجلياً في قلوبهم؛ فالآية تشير إلى بعدهم عن الله إلى درجة أنها لا تخاطبهم مباشرة بل تستعمل ضمير الشخص الثالث، وضمير الغائب "هو" ثم تقول الآية عنهم إنهم "أُمّيّون".. أميون لا يعرفون ما الكتاب وما العلم، ولا يعرفون الله ولا رسوله... إلى مثل هذه الجماعة الأمية الصعبة المراس التي لا يرجى منها خير أرسل شخصاً ذا إرادة صلبة وروح عالية وقلب واسع وعميق؛ فاستطاع أن يربي من هذه الأمة البدوية رجالاً ساسوا الإنسانية وقادوها. ومع أن الله تعالى يعطي أهمية إلى القلم وإلى الكتاب والقراءة فقد كانوا بعيدين عنها جميعاً فأرسل الله "منهم" رسولاً، أي رسولاً من هؤلاء.

وكون الرسول ﷺ "منهم" هو من جانب كونه لا يعرف القراءة والكتابة، لا يعني أنه كان جاهلياً مثلهم، والحقيقة أن الرسول ﷺ كان يجب أن يكون أميا، ذلك لأن الله تعالى سيكون معلمه ومربيه اختاره من بينهم وأرسله معلماً لتلك الأمة الأمية.

"يتلو عليهم آياته" أي يتلو عليهم آيات الله البينات آية بعد آية ويشرحها لهم ويربيهم عليها ويعلو بهم إلى سماء الكمالات الإنسانية. "وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين" أي مع أنهم كانوا قبل مجيئ رسول الله ﷺ في ضلال وفي جهالة وانحراف، فإن الله تعالى أرسل إليهم من يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.. كل هذا بوساطة نبي أمي. والمراد هنا من تعليم الكتاب هو القرآن. وكما استطاع القرآن أن يحتضن جماعة وأمة ويرفعها إلى مستوى إنساني رفيع فإنه يستطيع إنجاز الشيء نفسه للأجيال القادمة. أما الأفكار الموجودة حاليا والتي يقدمونها كأفكار جديدة وجذابة، فمصيرها إلى الانطفاء واحدة بعد أخرى مثل شموع تعرضت للريح، إذ سيكون الكتاب الوحيد الذي يقول للشموس في بلد النور "أنا الشمس التي لا تغرب." وستكون رايته هي الراية الوحيدة الخفاقة، وستحطم جميع الأجيال قيود الأسر عن أعناقها لتسرع إليه وحده، وقد بدت الدلائل على هذا منذ الآن.. فهذه هي روسيا.. وهذه هي الصين.. فلو سمعت ما يجري فيهما الآن وقبل عشر سنوات لما صدقت ما تسمعه الآن وحسبته خيالاً وأوهاماً... ولكن انظر الآن كيف تتحطم الدكتاتوريات المرعبة، وكيف تتهدم الإمبراطوريات السابقة وتهوي إلى الأرض جذاذاً واحدة إثر أخرى، وكيف يظهر القرآن وكأنه جذوة

متقدة من تحت الرماد، وكيف ينبعث عالم التوحيد انبعاثاً جديداً. وبالرغم من كل هذا الظلم والاستبداد والتسلط يسري الروح الإسلامي إلى أرجاء المعمورة روحا يانعاً نضراً يتسلل إلى القلوب وتنبهر به الأنظار.

والمعنى الآخر لها هو قيام النبي ﷺ بفضل هذا الكتاب المنير الذي علمه الله تعالى إياه بتربية نفوسهم والسمو بها إلى المعالي، والسمو بالإنسان إلى المرتبة اللائقة بالإنسان، أي إرشاده إلى الطرق المؤدية إلى مرتبة الإنسان الكامل. فكما صعد وارتفع في المعراج فعليه أن يرتفع بهم روحيا وأن يحقق لهم معراجاً معنوياً وروحياً في أعماق قلوبهم، حتى ولو كانت هذه الأمة في ضلال بين وفي انحراف كبير عن الحق، فالله تعالى إن شاء جعل من الفحم ماساً ومن التراب ذهباً وتبراً.. بل فعل ذلك فأخرج من هذه الأمة التي كانت قلوبهم سوداء كالفحم أمة بقلوب من ماس إلى درجة أن ذلك النسل الذهبي الذي رباهم الرسول ﷺ لا يزالون يبهرون الأنظار.. هذا هو الفضل الإلهي الذي تم بوساطة النبي ﷺ. لذا، يمكن القول بأن الرسول ﷺ هو الإنسان الذروة الذي استطاع أن يعلو بالبشرية إلى المستوى اللائق بالإنسان.

وبعده فإن أي إنسان عندما كان يقترب من الله تعالى بجناح الولاية أو البر والتقوى كان يرى في أماكن القرب منه تعالى ألوية محمد ﷺ وهي تتموج هناك، وما خطا أحدهم خطوة في مدارج الرقي إلا رأى آثار أقدامه ﷺ.

من الخطأ أن نظن أن تربية رسول الله ﷺ اقتصرت على تزكية النفوس، إذ أنه أتى بنظام شامل للتربية يخاطب العقل والروح والقلب. والحقائق القرآنية الشاملة تفعل الشيء نفسه. فالرسول ﷺ يخاطب العقل ويحضه ويشوقه، ويصل

بهذا العقل ذي البعد الوحيي إلى الحد النهائي للعقول. ثم يتناول الروح ليسمو به إلى مراتب أعلى بكثير من المراتب التي يستطيع أن يصل إليها أي متخصص في التربية، ويأخذ بالقلب إلى العوالم التي يشتاق إليها ويهفو.. ثم يتناول مشاعر الإنسان ولطائفه الأخرى ليرتفع بها أيضاً إلى عوالم يتعثر فيها الخيال.. وبعد أن ارتفع بأرواح وعقول وقلوب تلاميذه وطلابه فتح أمامهم أبواب المؤسسات العلمية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية والعسكرية والسياسية، لأنه أتى برسالة تستطيع أن تربي فتحصل على أفضل رجال الإدارة والاقتصاد والسياسة، وعلى أكمل القواد العسكريين... أجل، لقد جاء رسول الله ﷺ برسالة شاملة فيها الاقتصاد والمال والإدارة والتعليم والتربية وفيها أحكام العدل والقوانين الدولية... الخ. والخلاصة أنه أتى برسالة تحتضن كل ضرورات التقدم، ذلك لأنه لو كان هناك أي نقص في أي ناحية من نواحي رسالته لما تحققت الغاية من إرساله، بينما يقول النبي ﷺ في حديث له:

«إن مَثَلي ومَثَل الأنبياء من قبلي كمثل رحل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وُضعت هذه اللبنة! قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين.»[1]

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿اَلْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة: ٣). أي أن جميع الأنبياء والأصفياء والأولياء كانوا يقولون: متى يتم هذا البنيان؟ فأنا أرسلتك نبياً كاملاً لتكملة هذا البنيان، وكما رضيت لكم هذا الدين فقد أقمته على الأسس التي يرضى الناس عنها.

(١) **البخاري**، المناقب، ١٨؛ **مسلم**، الفضائل، ٢٠-٢٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢/٢٥٧، ٣٩٨

أجل، لقد جاء النبي ﷺ لتكملة النواقص، والذين يحاولون البحث والتفتيش عن نقص في رسالته، عليهم أولاً أن يبحثوا عن الثغرات الموجودة في عقـــولهم وفي قلوبهم.. لقد قام النبي ﷺ بمهمة التتمة والتكملة وبمهمة الإصلاح والبلوغ إلى الكمال... كان عليه تعديل كل عوج. وإصلاح كل نقص، وتكملة كـــل قصور.. وقد أنجز هذا وأتمه. نستطيع أن نشاهد عظمة أي شخص مـــرب في المسائل الآتية:

أ. السموّ بالروح والنفس والعقل

الأول هو السمو بروح الإنسان ونفسه وعقله، والبلوغ بها إلى أعلى نقطة يمكن الوصول إليها. والتأريخ يشهد أن الرسول ﷺ استطاع أن يحقق هـــذا في طلابه وفي المنتسبين إليه بعون من الله تعالى..

يأتي ذكر النفس الأمّارة في القرآن الكريم... هذه النفس التي تضع العراقيل والعثرات أمام سمو الإنسان وتحاول الضغط عليه للحيلولة دون هذا الـــسمو. فبدلاً من إنسان حقيقي مشتاق إلى عالم الروح، تجعله إنساناً يهتم بمتطلبـــات جسده فقط. وقد التجأ سيدنا يوسف عليه السلام إلى الله تعالى من هذه النفس ﴿إِنَّ النَّفسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ (يوسف: ٥٣). إن النفس بطبيعتها أمّارة بالسوء، إلا أنه من الممكن التخلص من الوقوع في بئرها العميقة عمق بحـــيرة لوط، والارتفاع مرحلة فمرحلة إلى أعلى وإلى الذروة، والقـــرآن يـــشير إلى أوضاع النفس هذه إذ يقول: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفسُ الْمُطمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَى رَبِّـــكِ رَاضِيَةً مَرضِيَّةً﴾ (الفجر: ٢٧-٢٨).

كما يشير القرآن إلى حالة تتحول فيها النفس من النفس الأمّارة بالسوء إلى "النفس اللوّامة"، أي النفس التي تحاسب نفسها. ولأنه يعد هذه النفس مرتبة معينة، فإنه يقسم بها و﴿لاَ أُقسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة: ٢).

ثم هناك "النفس الصافية" وهي صفة النفس لدى المقربين، وأصحاب هذه الصفة تتجلى فيهم الشفافية والنقاء والصفاء إلى درجة أن الذين يشاهدونهم يتذكرون الله تعالى. وكانت نفس محمد ﷺ من هذا النوع. كما استطاع تحويل العديد من أصحاب القابليات وأصحاب الكفاءات إلى هذه المرتبة بدرجات مختلفة كل حسب قابليته واستعداده. لقد استطاع الرسول ﷺ – بعون الله– بالتربية المستمرة للنفس وتزكيتها إيصالها إلى أعلى هدف تستطيع النفس الإنسانية بلوغه. وهذا يبرهن على أنه كان مربياً لا مثيل ولا نظير له. وعندما نتفحص عهده نرى أنه لم يدع أي ثغرة تربوية في موضوع السمو بالعقل والنفس والارتفاع بهما إلى الذروة.

ب. **كون دعوته عالمية**

والثاني هو أن نجاح المربي وكماله يقاس بمدى عالمية وشمول دعوته وبالأبعاد الكمية والنوعية لمنتسبيه، فقد قام المعلمون والمرشدون الذين رباهم في حياته بنشر الحق في مناطق واسعة شاسعة ما بين مَراكَش ونهر أمودَريا القريب من بخارى، وتأملوا كيف أن المربي الوحيد في تلك المساحة الشاسعة من البلدان آنذاك لم يكن سوى النبي ﷺ، وكان النظام الذي أتى به نظاماً شافياً ووافياً لمشاكل مختلف الأقوام والجماعات التي كانت تموج بها هذه المنطقة الشاسعة.

فكل من الإيراني والتركي والصيني.. الخ على اختلاف أمزجتهم ومشاربهم وثقافاتهم كانوا يهرعون إليه ويتقبلونه هو وكل ما أتى به. إذن، فإن نظم التربية التي جاء بها نظم عالمية تصلح دواء للبشرية كلها. إذن، فإن محمداً ﷺ كان أكثر المربين تأثيراً في طول التاريخ وعرضه وأكثرهم مصداقية. ثم إننا نبحث عن مدى عظمة المربين في مدى بقاء وثبات أسس النظم التربوية التي يأتون بها، والآن انظروا إلى الناس الذين يتربون على أسس النظم التربوية التي جاء بها محمد ﷺ قبل كل هذه القرون، فسترون أن الملائكة تغبط معظم هؤلاء في أخلاقهم. وإن نظم تربيته لا تزال تربي الأجيال حتى الآن.

والآن لنفكر ولنتأمل: لقد ظهر النبي ﷺ في أمة بدوية متخلفة بل متوحشة وبدائية، ولكنه استطاع أن يربي من هذه الأمة طوال عصور وعصور قادة أطهاراً قادوا الإنسانية إلى الخير. إذن، فإن الرسالة التي جاء بها كانت رسالة كافية لإنقاذ البشرية بنفحة واحدة منها. وأنا شخصيا لا أحب تصوير الباطل، ولكني لا أملك نفسي من عرض بعض المناظر التي تبين مدى فساد المجتمع في العهد الذي ظهر فيه الرسول ﷺ.

لقد ظهر في مجتمع تغلغلت فيه الوحشية إلى نفوس أفراده وأصبحت طبيعة فيهم: كانوا يشربون الخمر ويلعبون القمار ويقترفون الزنا علنا، ولم يكونوا يعدون هذه الفواحش شيئاً معيباً. انتشر الزنا حتى أصبح علنيا، فقد خصصوا بيوتاً للدعارة ونصبوا أمامها الأعلام..[1] كانت الفواحش منتشرة بشكل يجعل الإنسان يخجل

(١) **البخاري**، النكاح، ٣٦؛ **أبو داود**، الطلاق، ٣٣

من إنسانيته... ولو لا الحياء لذكرت أموراً أخرى. ثم إن هؤلاء القوم كانوا من النوع الذي لا يتورعون عن إثارة المشاكل الكبيرة والمنازعات الخطيرة لأسباب تافهة، وكان من المستحيل تقريباً جمعهم على صعيد واحد ومزجهم بعضهم مع بعض وتأليف قلوبهم، فقد سادت الفرقة والشحناء في أرجاء شبه الجزيزة العربية إلى درجة بدت أنها غير قابلة للعلاج.. أجل، فما من سوء إلا وجدته هناك. و لم يكن من الممكن أبداً لمثل هذا القوم الاستماع إلى النبي ﷺ، ولكنه استطاع أن يسل هذه العادات السيئة منهم واحدة بعد واحدة، ثم زينهم بمزايا وأخلاق عالية بحيث سبقوا الأمم كلها وأصبحوا لها أساتذة ومعلمين.

من هذه الأمة البدوية المتوحشة أنشأ أمة مدنية لا تستطيع الأمم المدنية حتى في عصرنا الحالي بلوغ كعبها، لذا يقول "موليير (Molière)" بحقٍّ "يستحيل أن توجد جماعة أخرى مستعصية على العلاج مثل جماعة نبي الإسلام. والاستحالة الثانية هي القيام بإصلاح مثل هذه الجماعة في وقت قصير جداًّ لا يتجاوز ٢٣ عاماً ورفعها إلى مصاف الإنسانية، و لم يتيسر هذا إلا لمحمد ﷺ ".

ويقول مفكر غربي آخر: "لقد استطاعت البشرية أن تقطع ٢٥% من التقدم المقدر لها من يوم ميلادها وحتى عهد محمد ﷺ، أما في عهده فقد ازدادت هذه النسبة بشكل عمودي وأصبحت ٥٠% وعلى الرغم من كل الجهود المبذولة منذ عهده حتى الآن فإن النسبة ارتفعت إلى ٧٥% فقط."

ومعنى هذا الاعتراف المخلص أن الثمار الناتجة من جهود جميع الأنبياء والفلاسفة وكبار رجال العلم والدولة والسياسة وصل إلى مثلها الرسول ﷺ في مدى ثلاثة وعشرين عاماً فقط، وأنه رغم جميع التقدم التقني والعلمي الحاصل

منذ أربعة عشر قرناً فإن البشرية لم تستطع سوى إنجاز نفس النسبة التي استطاع الرسول ﷺ من إنجازها في حياته وهي نسبة ٢٥%، أما نسبة ٢٥% الباقية فستحصل عليها البشرية فيما بعد ضمن عمرها الباقي... هذا هو محمد ﷺ، وهذه هي خدماته للبشرية التي تنعكس في القلوب والضمائر الحية. وتقول "الموسوعة البريطانية" في هذا الخصوص: "لقد جاء مصلحون كثيرون في تأريخ البشرية كان من بينهم أنبياء استطاعوا إنجاز بعض النجاح، غير أننا لا نشاهد عند أي أحد منهم النجاح الذي سجله محمد."

ويقول الباحث "وهل (Wahl)" وهو من المنصفين: "لقد ترك كل رجل عظيم أثراً وراءه. أثر للنبي، وأثر للمصلح وأثر للمجدد وأثر لرجل الدولة العظيم. وقد ترك محمد ﷺ أيضاً أثراً بعده. وهذا الأثر عظيم إلى درجة أننا إن ذكرنا "الأثر" تبادر إلى الذهن أثره هو وحده، وهو أثر عظيم إلى درجة لا يمكن مقارنته مع الآخرين." وهذا الباحث رجلُ علمٍ أيضاً وقد حصل على جوائز علمية، إذن، فالصديق يعترف، والعدو يعترف أيضاً ولا أدري ماذا يقول بعض الجهلاء عندنا.

يُعَرِّفُ الله تعالى نفسه إلينا فيقول: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ (الأنعام: ٩٥). فكأن الله تعالى يسري عن رسوله محمد ﷺ بعرض صفاته المدهشة هذه عليه. فكأنه أعطى لرسوله ﷺ التراب والحجر والمعدن في تلك الصحراء الموحشة وبين البدويين المتخلفين لكي يصنع منهم رجالاً من الذهب الخالص من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد بن الوليد وعُقبة بن نافع وطارق بن زياد ﷺ أجمعين حتى يوم القيامة.

عندما ظهر سيدنا محمد ﷺ بنبوته وبرسالته في ذلك المجتمع وتعرف على معاصريه، كان لمعاصريه هؤلاء استعداداتهم وقابلياتهم القلبية والروحية والعقلية الخاصة بهم، فلم يحاول النبي ﷺ طمس هذه القابليات وإضعافها، بل استغلها وحركها وقواها وجعل منها قوة عظيمة وطاقة كبيرة. ويقدم أحد المفكرين الكبار[١] أنموذج عمر ﷺ قبل الإسلام وعمر بعد الإسلام... فعمر قبل الإسلام شخص جبار مهيب يملك الاستعداد لأن يكون رجلاً عظيماً. وقيامه في مراحل طفولته بالتسابق مع هذا أو ذاك ولوي أعناق الإبل وصرعها قد يكون إشارة إلى بذرة نفسه.. أما عمر بعد الإسلام فهو الإنسان الرقيق الحساس الذي يحذر من أن تطأ قدمه نملة، وكان إحساسه المرهف وشفقته إلى درجة جعلته يقول: "والله لو مات جمل ضياعاً على شط الفرات لخشيت أن يسألني الله عنه."[٢] وهكذا بلغ عمر وأمثاله إلى مستوى فوق مستوى البشر، وذلك بالتربية التي تلقوها عن الرسول ﷺ...

أجل، فقد استطاع الرسول ﷺ أن يربي أمثال هؤلاء الرجال من بين أولئك البدو المتخلفين الملتزمين بعاداتهم وعنجهياتهم بتعصب لا مثيل له. والآن لنشرح هذا الموضوع بمثال صغير شرحاً مختصراً: تحاول الدولة بكل وسائلها ووسائطها وإمكانياتها مكافحة عادة التدخين -التي تعد عادة بسيطة- فلا تستطيع ذلك، بل لا تستطيع مجرد خفض نسبة التدخين -المستمرة في التصاعد- إلى نسبة معقولة.

---

(١) المقصود هو الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي. (المترجم)

(٢) «**تاريخ الأمم والملوك**» للطبري ١٩٥/٥؛ «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم ٥٣/١؛ «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ٣٠٥/٣

ولا تعجز دولتنا فقط في هذا الموضوع، بل تعجز كل دول العالم، هذا بالرغم من كل المحاضرات وكل المقالات وكل الندوات التي تعقدها لمكافحة هذه العادة. ومع أن العلم وعالم الطب يصرحان بأن التدخين يؤدي إلى الإصابة بسرطان الحنجرة والرئة وسقف الفم، ومع أن الإحصاءات تقول إن نسبة الإصابة بهذه الأمراض نسبة كبيرة قد تبلغ ٩٥% إلا أن كل هذه الجهود وهذه المعلومات والإحصاءات لا تفيد في مكافحة عادة التدخين. إلا أن أهل ذلك العهد كانت لهم عشرات العادات الضارة التي تشربتها نفوسهم واختلطت مع دمائهم فأصبحت أقوى بكثير من عادة التدخين، ولكن رسول الله ﷺ استطاع بنفحة واحدة أن يزيل هذه العادات الضارة. وأن يزينهم بدلاً منها بعادات جميلة وبخلق حسن وبخصال حميدة إلى درجة كانت ملائكة السماء تغبطهم عليها وتتعجب فتقول: "عجباً! هؤلاء ليسوا ملائكة.. ولكنهم أفضل منها." وفي يوم الحشر عندما تكاد أنوار هؤلاء تطفئ نار جهنم ستذهل الملائكة وتقول: من هؤلاء؟ أهم من الأنبياء أم من الملائكة..؟[1] إنهم ليسوا بأنبياء ولا ملائكة ولكنهم أفراد من أمة محمد ﷺ نشأوا على تربيته وتربوا على مبادئه.

كان عبد الله بن مسعود ﷺ يرعى غنم عُقبة بن أبي مُعيط،[2] فأخذه النبي ﷺ وجعله من أصحابه ومن تلاميذه وجعل منه مرشداً كبيراً بحيث يمكن القول إنه صاحب مدرسة الكوفة.. هذه المدرسة التي خرجت علماء أمثال علقمة وحمّاد والثوري وأبي حنيفة حيث كان كل منهم قمة في ساحة علمه وقد

---

(١) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٠/٣٦٠

(٢) «**المسند**» للإمام أحمد ١/٣٧٩؛ «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ٣/١٥٠

استقوا معظم مصادر علومهم من ابن مسعود ﷺ الذي كان في الجاهلية راعي إبل وغنم... وهكذا جعل رسول الله ﷺ من راعي الغنم مثل هذا الشخص العبقري.

هناك بعض علماء الإسلام الذين أصبحوا موضوعاً للدراسة من قبل علماء الغرب منذ سنوات وكتبت حولهم مجلدات عديدة.. أحد هؤلاء العلماء هو أبو حنيفة ﷺ الذي يعد "سولون (Solon)" و"حَمّورابي" في مرتبة تلاميذه حسب رأى أحد المفكرين... بينما يُعد هذا الرجل العظيم أي أبو حنيفة تلميذ تلميذ تلميذ ابن مسعود راعي الغنم وتلميذ رسول الله ﷺ... وأنا لا أريد هنا التهوين من شأن أبي حنيفة حاشا لله ولكني أريد بيان عظمة أستاذهم. أجل، فبفضل تربية الرسول ﷺ وتنشئته ظهر هؤلاء العظام بعد أن لم يكونوا شيئاً يذكر.. فقد تم إخراج الحي من الميت، وجعل الفحم ماساً.

وبفضل التربية نفسها استطاع عبد بربري، أن يعبر برج هرقل وأن يغير اسمه لكي يقول لأهالي بلاد ما وراء البحار ما لم يسمعوه من قبل، ويعرض أمامهم ما عجزت عقولهم عن إدراكه... فأوروبا قبل تعرفها بالإسلام ما كانت لتعرف معنى الرغبة في الشهادة واستحقار الحياة واستصغارها والشوق إلى الموت وإلى الشهادة، لذا فإنها لم تفهم كيف يقوم طارق بن زياد ومعه اثنا عشر ألف مقاتل بحرق سفنه والالتحام في قتال ضارٍ مع (٩٠-١٠٠) ألف من جيش أعدائه الإسبان والاستمرار في القتال حتى في أقسى الأحوال وأكثرها مدعاة للتشاؤم واليأس... لقد ذهلت منه... ذهلت من هذا الشخص الذي يحارب جيشاً يبلغ تقريباً تسعة أضعاف جيشه ويجمع جيشه ليقول لهم:

"أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام."

والتأريخ يقول لنا إن القتال لم يستمر سوى عدة ساعات انتصر بعدها جيش طارق انتصاراً كبيراً على أعدائهم.. و لم يلبث طارق إلا وكان في قصر طُلَيطُلة / توليدو (Toledo) حيث توجد فيه خزائن الملك الإسباني.. إذن، فانظر إلى حال هذا القائد الذي كان من قبل عبداً... انظروا إليه لكي تدركوا ما يفعله الإسلام عندما ينفخ معانيه في القلوب وفي النفوس.. لقد وضع طارق قدمه على خزائن الملك قائلاً: "يا طارق! لقد كنت من قبل عبداً، فأعتقك الله وجعلك قائداً، ونصرك ففتحت الأندلس وأنت الآن في قصر الملك، ولكن لا تنس فغداً ستكون بين يدي الله."

يا سبحان الله..! ما هذا الفهم العميق!! المعتاد هنا أن الشخص الوضيع عندما يصل إلى القمة يحمل معه عقدة النقص فيتظاهر بالكبرياء وبالغرور ويكون دائم الفخر بنفسه ودائم الحديث عنها إلى الناس. هذا ما نراه لدى الذين تسلطوا على رقاب الأمة. ما هذه التربية المذهلة التي جعلت من عبد شخصاً عزيز النفس كريمها، وجعلت منه إنساناً يراقب نفسه ويحاسبها بدلاً من الوقوع في خلق الخسة كما كان منتظراً من غيره في مثل هذه المواقف.

ومن الذين نشأوا في ظلال تربيته عُقبة بن نافع الذي فتح إفريقيا من أقصاها إلى أقصاها. وعندما بلغ المحيط الأطلسي خاض بجواده البحر حتى

الركبة قائلاً: "يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك."[1] ويتناول الشاعر التركي "عبد الحق حامد" هذا الموضوع في مسرحيته "طارق بن زياد" فيقول: "لا أدري أهذا القول من عُقبة بن نافع أسمى أم قول الملائكة في السماء؟"[2] أجل، هذا هو عُقبة بن نافع... تلميذ من تلاميذ محمد ﷺ.

لقد كان ﷺ يتناول الإنسان من جميع جوانبه العقلية منها والقلبية والروحية والوجدانية دون أن يهمل أو يطمس أي قوة منها، بل نشطها جميعاً وحركها كلها فأخرج من أفسد الناس أفضل الناس. وتسجيله كل هذا النجاح وكل هذا التوفيق في التوجيه وتربيته القابليات وبهذا القدر من الإصابة ومن التفوق دليل آخر من أدلة نبوته، ولا يمكن تقديم أي تفسير آخر في هذا الصدد، لأنه لم يعرف الإحباط أو الفشل أو الإخفاق في أيّ من هذه الجوانب.

ج. الحركة والعمل

يقول الرسول ﷺ في حديث له عن العمل والنشاط يحتاج إلى التأمل والتفكير: «إن الله تعالى يحب العبد المؤمن المحترف.»[3] ولم يكن بالإمكان قول غير هذا لأن القرآن الكريم يقول: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥). أي إن عملكم سوف يقيم حسب مقياس ومعيار معين. وهذه الأعمال بأجمعها سوف تشهر وتعرض يوم القيامة أمام الأنظار

---

(١) «**الكامل في التاريخ**» لابن الأثير ١٠٦/٤

(٢) «**طارق**» لعبد الحق حامد طرخان (باللغة التركية)

(٣) «**فيض القدير**» للمناوي ٢٩٠/٢

حيث يأتي الناس ويشاهدونها ويدققونها: أتُعد هذه أعمالاً أم لا؟ إذن، فالناس يجب أن يعملوا آخذين هذا بنظر الاعتبار.

ويقول الرسول ﷺ في حديث آخر: «إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه.»[1] والآية الكريمة من أهم الآيات التي تحض على العمل، وأنا أعتقد أنها تصلح للكتابة على غلاف كل كتاب. ويشير حديث «إن الله تعالى يحب العبد المؤمن المحترف» إلى أحد أبعاد هذا العمل. أجل، إن الله تعالى يحب العبد الذي يعمل ويكدح ويتعب في الأعمال التي تسمح بها الشريعة. والرسول ﷺ يقول: «ما أكل أحد طعاما قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده.»[2] ويقول أيضا: «لأن يحتطب أحدكم حُزْمَة على ظهره خير من أن يسأل أحدا فيعطيَه أو يمنعَه.»[3]

ونستطيع تناول الموضوع في ظلال سورة العصر: ﴿وَالْعَصرِ ۞ إنَّ اْلإنْسَانَ لَفِي خُسرٍ ۞ إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَواصَوا بِالْحَقِّ وَتَواصَوا بالصَّبرِ﴾ (العصر: ١-٣).

فالإيمان والعمل الصالح والارتباط بالحق والتواصي بالحق والصبر والتعلق بالصبر والتواصي بالصبر... كل هذه أنواع من العمل والحركة، والله تعالى يحب أصحاب هذه الأعمال. فالعمل والنشاط حسب مفهوم النبي ﷺ وضمن

---

(١) «**كنز العمال**» للهندي ٩٠٧/٣

(٢) **البخاري**، البيوع، ١٥؛ **ابن ماجه**، التجارات، ١

(٣) **البخاري**، الزكاة، ٥٠، ٥٣، البيوع، ١٥؛ **الترمذي**، الزكاة، ٣٨؛ **النسائي**، الزكاة، ٨٥؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٣٤/١

دائرته يعد من أفضل الأعمال وأقربها لنيل رضى الله تعالى، فهو لم يقل أبداً كونوا كالرهبان واقضوا حياتكم في الصوامع وتجنبوا الزواج وابتعدوا عن الأكل الطيب وعن الشراب، ولا تمتعوا بالدنيا بل انبذوها لكي تحصلوا على رضا الله تعالى وتصلوا إليه.

فقد تناول الشهوة الجنسية ووجهها نحو الجهة المشروعة فقال ﷺ: «تزوجوا الودود الولود.»[١] وفي حديث آخر يقول: «تناكحوا تكثُروا فإني أباهي بكم الأمم.»[٢] أي كلما كثرتم فرحت وسعدت بذلك وعندما أنظر إلى خلفي فأرى الجموع الكثيرة وهي تركع وتسجد وتكبر وتهلل بخشوع فإن فرحي يزداد. فلم يحاول الرسول ﷺ تحجيم الغريزة الجنسية أو تحريفها أو حبسها، ولم يسلك أي طريق يؤدي بالإنسان للإصابة بالعقد النفسية من جرّاء كبتها. فقد أدار هذه الغريزة وصبها في مسار مشروع ووضع الطرق التي توصل الأمة الإسلامية من خلالها للحصول على رضا الله تعالى، فتربيته هي توجيه الفطرة والطبيعة البشرية نحو الاتجاهات التي تحقق الغاية من الخلق.

د. التجارة والزراعة والجهاد

ليس هناك مثيل له ولا شبيه في موضوع موازنة الأشياء. ففي حديث شريف يقول ﷺ: «إذا تبايعتم بالعِينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع

---

(١) **أبو داود**، النكاح، ٣؛ **النسائي**، النكاح، ١١؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٥٨/٣، ٢٤٥

(٢) «**فيض القدير**» للمناوي ٢٦٩/٣

وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذُلاًّ لا ينــزعه حتى ترجعوا إلى دينــكم.»[1] والتبايع بالعينة هي قيام شخص بشراء بضاعة من شخص آخر عن طريق الدين ثم بيعه له بسعر أرخص. هذا هو أحد تعاريف هذا البيع وهو يكفي هنا.

وسواء عدّ هذا البيع صورة من صور الربا المخفي أو شيئاً آخر فإن صاحب الشرع لا يرضى به. وأنا أعتقد بأننا لم نعرف المعنى الحقيقي لهذا الحــديث إلا بعد الثورة الصناعية إن كنا قد فهمناه بحق.. كنا قد نسينا الجهاد، وعندما نوينا التوجه للصناعة لم نحسن موازنة الأمور فأهملنا الزراعة وتربية الحيوانات.

علماً بأن الرسول ﷺ كان يخبرنا –وقبل أربعة عشر قرناً– بما يجب علينــا فعله. فقد كان متوازناً في هذا الأمر مثلما هو متوازن في جميع الأمور الأخرى. طبعا يجب أن تكون هناك زراعة وتربية حيوانات. والدليل على هذا وجــود أحاديث شريفة تحض على هذا... ولكننا نخطئ عندما نقصر كل جهودنــا في هذين المجالين فقط.

وهذا يشمل من يترك المدينة لكي يقضي حياة هادئة على قمة جبل ويبقى هناك وحده ليستغرق في تأملاته، ويشمل كذلك المــزارع ومــربي الحيــوان الفاقدين للنشاط والحيوية في مهنتهما... إذن، فهذا الحديث الــشامل يعلمنــا درساً مهماً في الاقتصاد، كما يقول لنا: إنكم إن تركتم الجهاد، أو لم تمتلكوا القوة التي تؤهلكم لأن تأخذوا مكانكم اللائق ضمن التوازن الدولي فــإن الله تعالى سيرسل عليكم ذُلاًّ لا يزول بسهولة.. إذ ستبقون تحت الاحتلال وتحت

(١) **أبو داود**، البيوع، ٥٤؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢/ ٨٤

القهر والظلم إلى أن تعودوا إلى الإسلام وتحيوا حياة إسلامية.. وهـذا المعـنى غيض من فيض، فلرسول الله ﷺ أحاديث أخرى عديدة حول هذا الموضـوع، ولكننا نكتفي هنا بهذا الحديث. وكما أن الرسـول ﷺ لم يحـدد القابليـات والمهارات والاستعدادات ولم يضيق عليها، فإنه لم ينظر إلى القوة البدنية نظرة تحقير واستهانة، على العكس من هذا فقد قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.»[1]

والذين يريدون أن يكونوا محبوبين من قبل الله تعالى عليهم أن يكونوا أقوياء في أبدانهم وأقوياء في قلوبهم. أي يكونوا أقوياء في الروح بجانب القوة الجـسدية. وهكذا يتبين لنا أن الرسول ﷺ لا يقول لنا: صوموا لكي تضعفوا، واضعفوا بدنيا لكي تحصلوا على رضا الله وقبوله. بل يحارب الرهبانية بقوانين الفطـرة الإلهيـة ويوجهنا إلى هذه القوانين.

هـ. ملاحظة حول العلم

إن ما أتى به النبي ﷺ لساحة العلم وما أكسبه للعلم وللحياة الفكرية يعد من مظاهر رسالته العالمية الشاملة. يهتم القرآن بالعلم ويحض الناس جميعاً لاكتـسابه فيقول: ﴿هَلْ يَستَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩). فيجعل للذين يعلمون مرتبة أسمى من الذين لا يعلمون. ويقول في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨).

فالعلماء الذين هم أقرب إلى معرفة عظمة الله تعالى هم الذين يخشونه حق

(١) **مسلم**، القدر، ٣٤؛ **ابن ماجه**، المقدمة، ١٠

الخشية. (وهناك قراءة شاذة تسند إلى أبي حنيفة يقرأ فيها لفظ الجلالة مرفوعاً ويكون المعنى آنذاك: "إن اللهُ يُقَدِّرُ من عباده العلماء فقط" ولا شك أن هـذا التقدير هو بشكل يناسب الذات الإلهية المنزهة. ولكن القراءة كما قلنا قـراءة شاذة[1] ولكنها من ناحية معناها جديرة بالوقوف عندها أيضاً).

عندما يقوم فخر الدين الرازي بتحليل موضوع متعلق بالعلم ينتبه إلى نكتة لطيفة جداً فيقول: "إن المذاهب الثلاثة خارج المذهب المالكي تعد الكلب نجساً عيناً"، أي أن الكلب نجس بأجمعه فلا يصح وجوده في البيوت، ولكن إن كان الكلب "كلباً معلَّماً"، أي تم تعليمه وتدريبه على الصيد أو على حراسة الغـنم عند ذلك يتغير الوضع. حيث يصح أكل الصيد الذي يمسكه بفمه ويأتي بـه، وتعد الأماكن التي يتجول فيها ويتمسح بها أماكن نظيفة، ولا يكون هناك بأس من وجوده في البيوت."

هنا يقف الإمام فخر الدين الرازي هُنيهة ليقول: "إذا كان الكلب يتخلص من نجاسته نتيجة لتعلمه الصيد بل يصبح كأحد أفراد العائلة فما بالك بالإنسان العالم وإلى أي ذروة يستطيع هذا الإنسان العالم أن يبلغ؟"

هذه هي وجهة نظر الشريعة.. وهذه هي الرسالة التي أتى بها محمـد ﷺ. فالذين لا يعرفون الله جهلاء والذين يعرفون الله وينقادون له علماء. وحـسب منطق الشريعة لا تطلق كلمة "العلماء" على الذين لا يعرفون الله ورسوله. أما

(١) «**الجامع لأحكام القرآن**» للقرطبي ٢٢٠/١٤؛ «**روح المعاني**» للآلوسي ١٩١/٢٢؛ «**تفسير النسفي**» للنسفي ٣٤٠/٣؛ «**الكشاف**» للزمخشري ٣٠٨/٣

الذين يعرفون الله تعالى ورسوله فهم "علماء" وإن كان نصيبهم من العلوم قليلاً. فإذا أعتبرنا أن كلمة "يخشى" في القراءة الشاذة تأتي بمعنى "يحترم" إذن، فالله تعالى بالمعنى اللائق بذاته وبصفاته يحترم من يؤمن بالله وبأنبيائه وكتبه واليوم الآخر وبالحشر والنشر وبالجنة وبجهنم.

وسأكتفي هنا في موضوع الفكر بالحديث النبوي الشريف: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة.»[1] لم ير الغرب شيئاً مثل هذا و لم يصل إلى هذه المرحلة بعد.. إن قمتم بالتفكر وبالتأمل المنظم ساعة واستطعتم التوصل إلى شيء تستطيعون تقديمه لخير الإنسانية، أو لو قمتم بالتفكر والتأمل باسم حياتكم الروحية والقلبية ولصالح حياتكم الأخروية وحياتكم الأبدية بشكل صحيح ومشروع فإن مثل هذا التأمل والتفكير قد يكون خيراً لك من عبادة سنة، وقد يكون ثوابه أكثر.

لقد ابتعدنا منذ سنوات طويلة عن التأمل والتفكير المنظم وكذلك عن العبادة ذات الأبعاد العميقة.. ابتعدنا أو أُبعدنا.. ولا يرجع هذا العيب إلى الإسلام، بل إلى المسلمين. فقد فتح رسول الله ﷺ أبواب ونوافذ التفكير على مصاريعها قائلا لنا: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ﴾ (الحجر: ٤٦).

وكلما أصبحنا غرباء عن العلم زادت سطحيتنا، وعجزنا عن صيانة مواقفنا في التوازن الدولي أمام الغرب فأصبحت الكلمة كلمتهم وأصبحنا نتلقى الأوامر منهم. ولكني مؤمن بأن هذه الأمة الأصيلة ستنهض يوماً وتشغل المكان اللائق بها بين الأمم.

---

(١) «**كشف الخفاء**» للعجلوني ٣١٠/١

أجل، لقد جاء رسول الله ﷺ برسالة خلقية وتربوية، ولكنه نجح في تربيته هذه للإنسان حسب استعدادات وقابليات كل فرد و لم يحرف هذه القابليات أو يقف أمامها بل أخذ الإنسان كما هو، مما جذب إليه الناس آنذاك وأصبحت طريقته التربوية هذه قوة دافعة لهم لأنها لم تقف أمام الفطرة الإنسانية و لم تحاربها و لم تناقضها. فكل تعليم من تعاليمه كان عاملاً دافعاً. هذا علماً بأنه كان يطبق طريقته التربوية في مجتمع لا يعرف أي شيء تقريباً من الأخلاق أو التربية أو السلوك السليم. وفي الأمثلة التي سأقدمها يظهر لنا بوضوح من أين أخذهم الرسول ﷺ وإلى أين أوصلهم في النهاية.

الفصل الرابع:

أمثلة من نظام تربيته وتعليمه ﷺ

أ. موقفه من الأعرابي الذي بال في المسجد

ينقل البخاري ومسلم الحادثة التالية عن أنس بن مالك رضي الله عنه:

بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد فقال أصحاب رسول الله ﷺ مَهْ مَهْ. قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُزرموه [1] دعوه.» فتركوه حتى بال. ثم أن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر. إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن» فأمر الرسول ﷺ رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشنّه[2] عليه.[3]

أجل، لقد كان معظمهم في البداية في مثل هذا المستوى من البداوة والتخلف بحيث لا يرون بأساً من البول في المسجد... من هؤلاء البدو شكل وكون ذلك المجتمع المثالي العظيم.. ومن يدري كم من عظيم أتى من صلب هذا البدوي!

(١) **لا تُزرموه**: معناه لا تقطعوا. والإزرام القطع. (المترجم)

(٢) **فشنه**: أي فصبه. (المترجم)

(٣) **البخاري**، الوضوء، ٥٦-٥٨؛ **مسلم**، الطهارة، ٩٨-١٠٠

ب. **القيمة التي أعطاها للمرأة**

انطوت الجاهلية في صفحات الماضي، و لم يعد أحد يذكرها إلا بابتسامة مرة أو بابتسامة هازئة.. أجل، فعندما كانوا يتذكرون عهد الجاهلية كانت المرارة ترتسم على الشفاه وعلى الوجوه. ففى يوم جاء أعرابي من البادية إلى مسجد رسول الله ﷺ وتحدث مع رسول الله ﷺ فكان مما قاله:

يا رسول الله إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان فكنا نقتل الأولاد، وكانت عندي ابنة لي، فلما أجابت، وكانت مسرورة بدعائي إذا دعوتها، فدعوتها يوماً فاتبعتني، فمررت حتى أتيت بئراً من أهلي غير بعيد، فأخذت بيدها فرميت بها في البئر، وكان آخر عهدي بها أن تقول: يا أبتاه، يا أبتاه فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف[1] دمع عينيه، فقال له رجل من جلساء رسول الله ﷺ: أحزنت رسول الله ﷺ. فقال له: «كُفَّ،[2] فإنه يسأل عمّا أهمّه.» ثم قال له: «أعِدْ عليّ حديثَك» فأعاده، فبكى حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته ثم قال له: «إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا، فاستأنف عملك.»[3]

أجل، كان هذا وضع الناس آنذاك.. لم تكن للمرأة حق الحياة، وقد ظهر رسول الله ﷺ من بين مثل هذه الجماعة فقام بإعطاء كل شيء حقه وأعطى للمرأة قيمة كبيرة.. هذه المرأة التي كانت مهانة ومحتقرة من جميع الأطراف حتى من قبل والدها؛ حتى إن النساء كن يخفين البنات عن آبائهن، ومع أن

---

(١) **وكف**: تقاطر. (المترجم)

(٢) **كف**: أي أمسك عن تأنيبه ولومه. (المترجم)

(٣) **الدارمي**، المقدمة، ١

الإحصاء لم يكن معروفاً آنذاك فأنا أعتقد بأن ٥٠% من النساء اللواتي عشن كن من النساء اللواتي أخفين عن أعين آبائهن. و لم يأنف عن عملية القتل والوأد هذا إلا بعض الرجال من ذوي الفطر السليمة مثل أبي بكر ﷺ. وعدا هؤلاء فإن معظم الشباب الذين لم يتعرفوا على الإسلام كانوا من قتلة بناهم.. في مثل هذا المجتمع ظهر النبي ﷺ ورفع المرأة إلى المستوى اللائق بها.

تأملوا الحادثة التي روتها أمنا عائشة رضي الله عنها ونقلها النسائي وأحمد:

إن فتاة دخلت عليها فقالت: إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته وأنا كارهة. قالت: اجلسي حتى يأتي النبي ﷺ. فجاء رسول الله ﷺ فأخبرته فأرسل إلى أبيها فدعاه فجعل الأمر إليها فقالت: يا رسول الله، قد أجزتُ ما صَنَع أبي ولكن أردتُ أن أَعْلَمَ أَللنِّسَاءِ مِنَ الْأَمرِ شيءٌ؟ [1]

إذن، فالمرأة التي كانت تدفن حية، والمرأة التي كانت مهانة ومحتقرة سابقاً أصبح لها الحق في أن تأتي إلى رسول الله ﷺ وتطالب بحقها بكل حرية وترغب في معرفة عما إذا كان لوالدها الحق في إكراهها على الزواج ممن يريد. ولو أن أحدهم قبل عدة سنوات ذكر بأن هذا سيحدث لما صدقه أحد ولظنوا أن بعقله خللاً.

ج. **رجل الاستغناء**

يروي الإمام مسلم وابن ماجه وأبو داود عن عوف بن مالك ﷺ: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: «ألا تبايعون رسول الله؟»

(١) **النسائي**، النكاح، ٣٦؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٣٦/٦

وكنا حديث عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله؟» فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله! ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله؟» قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك؟ قال: «على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً والصلوات الخمس وتطيعوا (وأسرّ كلمة خفية) وأن لا تسألوا من الناس.» فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه.[1] وأسر الرسول ﷺ جملته الأخيرة حتى لكأنه لا يريد أن يسمعه أحد، والظاهر أنه فعل هذا لكي لا يتسبب في إحراج أي صحابي من أصحابه فقد كان النبي ﷺ حريصاً على ألاّ يخدش مشاعر أحد من أصحابه.

ومرت السنوات وافتقر العديد من هؤلاء ولكنهم لم ينسوا عهدهم له لذا، نراهم يبدون اهتماماً كبيراً على ألا يسألوا أحداً شيئاً، حتى أن سوط أحدهم ليسقط وهو على ظهر ناقته أو جواده فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه وينزل من دابته ليلتقط السوط بنفسه.. ويجوز لنا أن نتصور أن هؤلاء الذين بايعوا الرسول ﷺ مثل هذه البيعة لم يطلبوا ولو قدح ماء من أي شخص.

يروي الإمام البخاري في صحيحه والترمذي أن حَكيم بن حِزَام ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني ثم قال لي: «يا حكيم! إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد

(١) **مسلم**، الزكاة، ١٠٨؛ **أبو داود**، الزكاة، ٢٧؛ **ابن ماجه**، الجهاد، ٤١

السفلى» قال حكيم: فقلت: "يا رسول الله! والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا" فكان أبو بكر يدعو حكيما ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئاً. ثم إن عمر دعاه ليعطيه فأبى أن يقبله فقال: يا معشر المسلمين إني أعرض عليه حقه الذي قسم الله له من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه. فلم يرزأ حكيم أحداً من الناس بعد النبي ﷺ حتى توفي رحمه الله.(١)

د. مقطع من الجاهلية

قام الرسول ﷺ بمحاربة ومكافحة الآلاف من العادات الجاهلية حتى استطاع أن يحول ظلمة الجاهلية إلى نور الإسلام. ولإيضاح هذا الأمر ننقل كلام جعفر بن أبي طالب للنجاشي:

"أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف؛ فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه. فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده ونخلَع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الأرحام وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء؛ ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات؛ وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. –فعدّد عليه أمور الإسلام– فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله، فعبدنا الله فلم نشرك به شيئاً وحرّمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما

(١) **البخاري**، الزكاة، ٥٠، الوصايا، ٩؛ **الترمذي**، القيامة، ٢٩

أحلّ لنا، فعدَا علينا قومنا فعذّبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى؛ وأن نستحلّ ما كنا نستحلّ من الخبائث. فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك علـــى مـــا سواك؛ ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نُظلَم عندك أيها الملك."(١)

وهذا يشير كيف أن العالم كان في ظلام حالك قبل بعثة محمد ﷺ، وكيف أن المجتمع الجاهلي كان يسبح في لجة من الفساد والفواحش.. فالزنا فيه حلال، والسرقة فيه شجاعة وبطولة.. يندر فيه من لم يدمن على الخمـــر... في هـــذا المجتمع الفاسد الوحشي استطاع الرسول ﷺ أن يقتلع كل هذا الفـــساد مـــن النفوس وأن يزينها بالأخلاق العالية وبالفـــضائل الـــسامية، وبـــأرفع المزايـــا الإنسانية.. أي أنه حقق في الواقع العملي "المدينة الفاضلة" الـــتي حلـــم بهـــا أفلاطون (Platon) في جمهوريته وحلم بها "توماس مور (Thomas More)" وغيرهما من المفكرين.

علماً بأن إخراج جماعة من حياة الفساد والبدائية والتوحش وجعلها مرشـــدة للإنسانية إلى طريق المدنية والفضيلة ليس إلا إخراج هذه الجماعة من الظلمات إلى النور. وقد استطاع الرسول ﷺ تحقيق هذه المعجزة فبرهن على أنه رجل الإعجاز.

ونحن الذين نعجز عن تبديل خصلة واحدة من الخصال التي تشربت بهـــا نفوس من نعيش معهم عمراً نقف باحترام وخشوع أمام محمد ﷺ ونشهد أنه رسول الله بحق وبصدق.

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١/٣٥٩-٣٦٠؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١/٢٠١-٢٠٢

ولقد حاولت بنفسي و لم أستطع إقناع أقرب الناس إلي بنظام التربية المثلى التي وضعتها والتي استلهمتها طبعاً من رسولنا ﷺ تمام الإقناع.. دعـــوت إلى الفضيلة حتى تعبت، ولكني لم أستطع حمل الناس عليها. إذن، فما أعظم تلـــك المقدرة وما أكبر تلك القوة التي كان يملكها الرسول ﷺ بحيث استطاع تحويل الناس من الحياة البدائية والمتوحشة إلى المدنية، ومن الدناءة إلى السمو بل جعل من رجال الجاهلية معلمين ومرشدين للأمم المتمدنة. وأنا أرى أن أناساً مثلـــي يعجزون عن إسماع كلامهم إلى ثلاثة أو أربعة أشخاص في أسرته هم الـــذين يقدرون تمام التقدير ما قام به الرسول ﷺ حيث نقل أمة بكاملها من وهـــدتها وسما بها وصب في روحها إلهام قلبه... بشرط واحد وهو أن لا يتعثر هـــؤلاء بموانع العناد والتعصب.

اتصل عهده وعهد أصحابه بشعوب إيران وبالشعوب التركية... كانـــت إيران تحت تأثير ثقافة أخرى، وكانت طوران والشعوب التركية تحت ثقافـــة أخرى مختلفة وكذلك الرومان، ولكن الرسالة التي أتى بها الرسول ﷺ لاءمت كل هذه الشعوب وكأنها فصلت خصيصاً لكل منها... وهنا تكمن المعجزة... أجل، إنها لمعجزة كبرى أن يأخذ الكرة الأرضية بين يديه ويطبق رسالته في كل أرجائها، وهي من دلائل نبوته ورسالته، أي أنه رسول الله.. وهذا ما أردنـــا قوله على الدوام.

قد لا يستطيع الشخص أن يكتشف بدهائه ويعرف عصره، فمثلاً يجوز أن "الإسكندر" قد أدرك عصره بمقياس معين، وقد يكون "قيصر" قد اجتاز وتقدم على عصره، ويجوز أن نابوليون (Napoléon) أدرك عصره وفهمه... وهكذا.

ولكن أن يفهم إنسان العصور التي ستأتي بعده والأمم والشعوب العديدة والمختلفة وأن تكون رسالته ملائمة لجميع هذه الشعوب وهذه الأمم ومقبولة من قبلها جميعاً أمر خاص برسولنا ﷺ، ولا نملك إلا أن نقول إن هذه معجزة، فليست هناك كلمة غيرها يمكن أن تصف هذا النجاح.. لقد وجد "آلب آرسلان" الذي عاش بعد رسول الله محمد ﷺ بأربعة أو خمسة عصور أن رسالته مناسبة وملائمة لروحه ولقلبه فآمن بها من كل قلبه، كما تقبل رسالته فاتح وقائد عظيم مثل محمد الفاتح الذي يُعد من أشهر قواد التاريخ والذي فتح عهدا وأغلق عهداً[1] تَقَبَّل رسالة النبي ﷺ مثلما تقبلها سلفه، وسار خلفه أيضاً وعلى أثره وفي الخط نفسه مع أنهم كانوا من عظماء التاريخ ودهاته، ولكنهم لم يقصروا في التسليم والتصديق برسالة النبي ﷺ.

ونحن الآن على أبواب القرن الحادي والعشرين، ومرور أربعة عشر قرناً لم يغير من هذا الأمر شيئا، إذ لم تزل الرسالة التي أتى بها رسول الله ﷺ رسالة يانعة نضرة وغضة تخاطب أرواحنا وقلوبنا وعقولنا، ذلك لأنها آتية ممن يعلم سرنا ونجوانا، وإلا فإن من المستحيل على أي إنسان أن يضع نظاماً يصلح لكل العصور.. فهذا موضوع يفوق طاقة أي إنسان مهما كان ذلك الإنسان من الذكاء والعبقرية.

يمكن أن نجد تفاصيل النظام التربوي الذي أتى به الرسول ﷺ في القرآن والسنة. ولو كان عمل الرسول ﷺ مقتصراً على تبليغ القرآن الكريم للناس

---

(١) ذلك لان سنة فتح اسطنبول (وهي سنة ١٤٥٣ م) تعد نهاية القرون الوسطى المظلمة في أوروبا وبدء عهد النهضة فيها. (المترجم)

وإقناعهم به لكان ذلك عملاً رائعا، ومع أن القرآن ليس موضـــوعنا الآن إلا أنني اضطررت إلى الاستطراد في هذا الموضوع.

لقد ظهر سيد المرسلين في مجتمع أمي جاهل لا يعرف المدارس ولا يعـــرف القراءة والكتابة. وعندما ارتحل إلى الرفيق الأعلى كان أغلب الصحابة يعرفون القراءة والكتابة بدءاً ممن بلغ الرشد حديثاً إلى الشيخ الكبير الذي ينتظر دخول القبر، وعندما ننظر إلى عهدنا الحالي بكل الإمكانيات المتوفرة فيه وبالرغم من كل الجهود -حتى الإكراه والضغط أحياناً- فإن قسماً كبيراً من المـــواطنين لا يعرفون القراءة والكتابة رغم مرور خمس وستين ســـنة علـــى قبـــول تركيـــا للحروف اللاتينية. أما رسول الله ﷺ فقد استطاع في زمن قصير يبلـــغ نيفـــاً وعشرين عاماً أن يؤسس الإيمان في النفوس ثم المعرفـــة ثم علمهـــم القـــراءة والكتابة. وأنا أظن أنه عندما ارتحل من هذه الدنيا إلى دار الخلود لم يكن هناك من بين أصحابه من لا يعرف قراءة القرآن الكريم... لـــيس قـــراءة القـــرآن فحسب، بل إن مزارعي المدينة المنورة كانوا يتلون القرآن بقراءاته الـــسبعة أو العشرة وهم يعملون في الحراثة. وكاتب هذه الأسطر لا يعرف وجـــوه هـــذه القراءات التي يطلق عليها اسم "علم الوجوه" والذين يعرفونها اليوم أشـــخاص قليلون.

صحيح أن الناس كانوا أذكياء آنذاك بالفطرة ويمتلكون ذاكرة قوية غـــير متعبة... غير أن هذا الأمر لا يمكن تفسيره بالذكاء وقوة الذاكرة، بل يمكـــن تفسيره بالنظام التعليمي الذي جاء به الرسول ﷺ والذي ربط قلوبهم بـــالقرآن بهذا الشكل المتين.

علماً بأن هؤلاء الناس كانوا قد فتحوا نوافذ قلوبهم لكل أنواع الشرور والآثام، فاستطاع الرسول ﷺ بإجراءاته المدهشة والرائعة أن يستل منهم كل عاداتهم السيئة وأن يصوغهم صياغة جديدة رائعة. فمثلاً يقول القرآن الكريم: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ (الإسراء: ٢٣). أثرت هذه الآية عليهم إلى درجة أن الذين كانوا يظلمون آباءهم وأمهاتهم أشد الظلم بل حتى يقتلوهم تغيروا فجأة فأصبح أحدهم يسأل الرسول ﷺ عما إذا كان هناك عقاب عليه إن لم يقابل نظرة والده إليه بالابتسامة.

ويقول القرآن الكريم أيضاً: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ (الأنعام: ١٥٢ والإسراء: ٣٤). فأصبح معظم المسلمين تحت تأثير هذه الآية يراجعون الرسول ﷺ ويسلمونه أموال الأيتام التي بحوزتهم. وإذا دققنا النظر نرى أن الآية لا تقول: "لا تأكلوا مال اليتيم" بل تقول: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ لذا، فإن الصحابة ﷺ بقلوبهم الحساسة كانوا يريدون التخلص من أموال اليتامى الموجودة في ذمتهم بعد أن أبدت الآية الكريمة كل هذه الحساسية في هذا الموضوع... فماذا دهى هؤلاء القوم الذين كانوا من قبل يأكلون أموال اليتامى ويضمون هذه الأموال إلى أموالهم دون أي تردد... ماذا دهاهم حتى تغيروا هذا التغير وتبدلوا كل هذا التبدل؟!

كان الزنا منتشراً بينهم ومباحا، ولم يكن هناك تقريباً من يستنكر هذا الإثم في ذلك المجتمع، فإذا بالقرآن الكريم يصرح بعد فترة من نزوله ﴿وَلاَ تَقرَبُوا الزِّنَى﴾ (الإسراء: ٣٢). فإذا به يقطع دابر كل العلاقات الآثمة وغير المشروعة... أجل، فلم يحدث سوى حادثتين أو ثلاث حوادث زنا فقط في تلك الفترة.

كان النهب والسرقة من أمارات الشجاعة والبطولة آنذاك فلما نزلت الآية بأمر ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيدِيَهُمَا﴾ (المائدة: ٣٨). تبدل كل شيء تبدلاً جذرياً. وأنا لا أعلم سوى وقوع حادثتين أو ثلاث حوادث فقط للسرقة طوال ذلك العهد.[١]

وقال القرآن الكريم لهؤلاء الذين كان القتل أهون شيء عليهم ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ﴾ (الإسراء: ٣٣ والأنعام: ١٥١). فإذا به يقطع دابر جرائم القتل. و لم تحدث طوال ذلك العهد سوى جريمتين إحداهما قيام أحد اليهود بجريمة مقصودة،[٢] والأخرى قيام أحد المسلمين بقتل أحد الأشخاص خطأ ودون عمد.[٣]

والآن تأملوا... في غضون ثلاث وعشرين سنة من العهد النبوي لا نشاهد سوى حادثة واحدة للزنا اعترف بها صاحبها وحادثة واحدة لقتل يهودي وحادثة واحدة قطعت فيها يد امرأة سارقة... هذه الحوادث المنفردة والنادرة تحدث في مجتمع كان الناس فيه قبل سنوات قليلة يأكلون الميتة ويشربون الدم وكأنهم أفراد من مصاصي الدماء... من هذا المجتمع أخرج النبي ﷺ مجتمعاً كالماء الزلال... ومن هذا المجتمع الملوث والفاسد، ومن هذا الوسط العفن والآسن ربَّى النبي ﷺ أشخاصاً أمثال أبي بكر وأبي هريرة وماعز والغامدية وغيرهم وغيرهم فأسس مجتمعاً نظيفاً ونورانيّاً... إن لم يكن هذا معجزة فما هي المعجزة إذن؟

---

(١) **البخاري**، الحدود، ١٣؛ **مسلم**، الحدود، ١٠

(٢) **البخاري**، الديات، ٥؛ **مسلم**، القسامة، ١٥، ١٦

(٣) **البخاري**، الديات، ١٠

ليس في إمكاني استعراض تفاصيل هذا الموضوع العريض والعميــق بكــل جوانبه، لذا فسأستعرض هنا -إن سمحتم- مبادئ بعض الخصال والأخــلاق العالية وإيراد مثال أو مثالين حولها لمعرفة مدى عظمة إجراءات الرسول ﷺ.

هـ. الكرم والإيثار

لم يكن ذلك المجتمع يفكر في شيء عدا مصلحته ومنفعته، حتى في موضوع الكرم الذي أصبح عندهم وسيلة للتفاخر والشهرة وليس مــن أجــل إغاثــة الملهوف. أما الإيثار فلم يكن معروفاً بينهم. وكما غيرت رسالة النبي ﷺ أموراً كثيرة في هذا المجتمع فقد غيرت هذه الناحية أيضا، فطاردت البخــل وتبنــت خصلة الكرم والإيثار وجعلتهما -ككل شيء- في سبيل الله ورجــاء ابتغــاء مرضاته فقط.

عن أبي هريرة ﷺ: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهود[1] فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا مــاء. ثم أرســل إلى أخرى فقالت مثل ذلك حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق مــا عندي إلا ماء. فقال: «من يضيف هذا الليلة رحمه الله؟» فقــام رجــل مــن الأنصار فقال: أنا يا رسول الله! فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته: هل عنــدك شيء؟ قالت: لا إلا قوت صبياني. قال: فعلِّليهم بشيء، فإذا دخــل ضــيفنا فأَطفئِي السراج وأريه أنّا نأكل. فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى الــسراج حــتى تطفئيه. قال: فقعدوا وأكل الضيف. فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال: «قد

(١) أي أصابني الجهد وهو المشقة والحاجة وسوء العيش والجوع. (المترجم)

عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة.» ونزلت آية: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر: ٩) في حق هذا الصحابي وإثر حادثة هذا الإيثار.[١]

وهكذا ربى النبي ﷺ أصحابه وأمته على خصلة الإيثار؛ فقد علمهم أن الإيمان يستوجب التسليم والتسليم يستوجب التوكل، والتوكل يستوجب سعادة الدنيا والآخرة... أجل، فإن كنت مؤمنا فيجب أن تسلم أمرك لله وتتوكل عليه وتثق به وتستند إليه، عند ذلك ستصل إلى سعادة الدنيا والآخرة.

و. **بطولة الخنساء**

أبكت الخَنْساء الناس كلهم بأبيات رثائها لأخيها صخر... كان ذلك في الجاهلية إذ لم تكن قد عرفت الرسول ﷺ بعد، ولا تعرفت على تعاليمه ولا سمعت شيئاً عن بيان القرآن الكريم ولا تفتحت نفسها وقلبها عليه. فلما عرفت القرآن وسمعت به وأشرب به قلبها تغيرت فجأة... تغيرت إلى درجة أن هذه المرأة التي قالت مئات الأبيات في رثاء أخيها في الجاهلية تحملت بصبر خارق استشهاد أربعة من أولادها في معركة القادسية واحداً إثر واحد... كانت تحس بقلب الأم الملهمة باستشهاد كل ابن لها، وتتلوى في مكانها من الألم ولكنها كفكفت دموعها وقالت بعد أن استشهدوا كلهم: "الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته."[٢]

---

(١) **البخاري**، تفسير سورة (٥٩) ٦؛ **مسلم**، الأشربة، ١٧٢، ١٧٣

(٢) «**أسد الغابة**» لابن الأثير ٨٩/٧-٩٠؛ «**الإصابة**» لابن حجر ٢٨٧/٤-٢٨٨

هاكم نوعية التغيير ومدى هذا التغيير الذي أحدثه النبي ﷺ... إنه كمن أخرج النور من الظلمات... وأكرر مرة أخرى وأسأل: إن لم يكن معجزةً تغيير الناس هذا التغيير المذهل في مدة قصيرة فما هي المعجزة؟

ز. الراكب المهاجر

بعد فتح مكة فر عكرمة، وبعد مشقة كبيرة استطاعت زوجته إقناعه بالرجوع... كان من ألد أعداء الرسول ﷺ، ولكنه عندما رجع ودخل على رسول الله ﷺ قام إليه النبي ﷺ ورحب به قائلاً له: «مرحباً بالراكب المهاجر.»(١) فتح هذا الترحيب قلبه فعاهد الرسول ﷺ أن يجاهد في سبيل الله. وعندما كان ينتظر الاستشهاد في معركة اليرموك أخبروه باستشهاد ابنه الوحيد "عامر" ومن يدري فقد يكون عكرمة تمثل وجه رسول الله ﷺ ليقول له: ألم أعاهدك على الجهاد؟ فهل وفى الراكب المهاجر بوعده؟

وكيف يمكن أن يكون ابن أبي جهل مهاجراً وهو الذي صرف حياته كلها في عداء الرسول ﷺ ومحاولة قتله..؟(٢) وهل يمكن أن يكون عنوان الشر مثالاً للخير..؟ أجل، هذا هو ماحدث فعلاً.

لقد كان في الجاهلية رجلاً غنياً وقويا، يسحق الضعفاء ويظلمهم، ولم يكن للضعفاء من يحميهم ولاسيما النساء إذ لم يكن لهن حتى حق الحياة، لقد كان

---

(١) **الترمذي**، الاستئذان، ٣٤؛ «**المستدرك**» للحاكم ٢٤١/٣-٢٤٢؛ «**الإصابة**» لابن حجر ٤٩٦/٢؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٣٨٥/٩

(٢) انظر: «**كنز العمال**» للهندي ٥٤١/١٣؛ «**السنن الكبرى**» للبيهقي ٤٤/٩

الأطفال يُقتلون دون سبب.. نعم، كانت هناك بعض القوانين وبعض الأعـــراف ولكنها كانت تستعمل ضد الضعفاء.. ولا تزال تستعمل هكذا حتى يومنا هذا. من هذا المجتمع البدائي والمتوحش والذي ضاع فيه الحق والعدل استطاع الرســـول ﷺ أن يربي جيلاً يمثل أرقى مستويات العدل.

ح. الوقّاف عند الحق

عمر بن الخطاب ﷺ هذا الخليفة العظيم الذي كان على رأس دولة تمتد من اليمن حتى نهر "أمودَريا" قرب مدينة بخارى. هذا الخليفة حدث بينه وبـــين أُبيّ بن كعب خلاف فقال له عمر: اجعل بيني وبينك رجلا، فجعلا بينهما زيد بن ثابت فأتياه فقال عمر: أتيناك لتحكم بيننا، وفي بيته يؤتى الحَكَم. فلما دخـــلا عليه وسّع له زيد عن صدر فراشه فقال: ها هنا يا أمير المؤمنين. فقال له عمر: هذا أول جَوْرٍ جُرْتَ في حكمك. ولكن أجلسُ مع خصمي.[١]

ط. حادثة ماعز ونظام المراقبة الوجدانية

إليكم مقطعاً من حادثة ماعز، وهي حادثة مراقبة وجدانية مدهشة.

جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: يا رســـول الله طهـــرني. فقـــال: «ويحك، ارْجِعْ فاستغفر الله وتب إليه» قال: فرجع غير بعيد. ثم جاء فقال: يا رسول الله! طهرني فقال رسول الله ﷺ: «ويحك، ارْجِعْ فاستغفر الله وتب إليه» قال فرجع غير بعيد ثم جاء فقال: يا رسول الله! طهرني فقال الـــنبي ﷺ مثـــل

---

(١) «كنـــز العمال» للهندي ٨٠٨/٥

ذلك. حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ: «فيم أطهرك؟» فقال: من الزنى. فسأل رسول الله ﷺ: «أبه جنون؟» فأخبر أنه ليس بمجنون. فقال: «أشَرب خمراً؟» فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أزَنيت؟» فقال: نعم. فأمر به فرجم. وفي رواية أنه عندما مسته الحجارة جال وجزع فبلغ النبي ﷺ فقال: «فهلاَّ تركتموه.»

قال فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس فسلم ثم جلس. فقال: «استغفروا لماعز بن مالك» فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك. فقال رسول الله ﷺ: «لقد تاب توبة لو قُسِّمت بين أمة لَوَسِعتهم.»

قال: ثم جاءته امرأة من غامد[1] من الأزد فقالت: يا رسول الله طهرني. فقال: «ويحك، ارْجِعِي فاستغفري الله وتوبي إليه.» فقالت: أراك تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك. قال: «وما ذلك؟» قالت إنها حبلى من الزنى. فقال «آنت؟» قالت: نعم. فقال لها: «حتى تضعي ما في بطنك» قال: فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت، قال: فأتى النبي ﷺ فقال: قد وضعت الغامدية. فقال: «إذن، لا نرجمها وندع ولدها صغيراً ليس له من يرضعه» فقام رجل من الأنصار فقال: إليّ رضاعه[2] يا نبي الله. قال فرجمها.

وعند رجمها طفر من دمها على وجه خالد فسبها فسمع نبي الله ﷺ سبه إياها فقال: «مهلاً يا خالد! فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب

---

(١) بطن من جهينة. (المترجم)

(٢) إنما قاله بعد الفطام وأراد بالرضاعة كفايته وتربيته وسماه رضاعاً مجازاً. (المترجم)

مكس[1] لغفر لــه» ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت.[2]

لماذا كانت هذه التوبة بمثل هذه المرتبة؟ ذلك لأن هناك إثماً ارتكب خفيــة و لم يعلم به أحد، ولكنها لم ترغب أن يبقى حسابها ديْناً على رقبتها تؤديه يوم الحساب، بل اعترفت بذنبها وهي تعرف عواقب هذا الاعتراف، إذ ظلت حتى يوم إقامة الحد عليها في خجل من الذنب الذي اقترفتــه في حــق الله وحــق المجتمع، وفي عذاب ضمير محرق... أجل، لقد زلت قدمها، ولكنها بحثــت في الدِّين عن سبيل لخلاصها.

ليس في الإمكان ذكر كل النظم الأخلاقية التي جاء بها النبي ﷺ، إذ يبلــغ عددها المئات، و لم يتيسر لنا سوى الإشارة إلى البعض منها. ولــو كــان في مقدورنا تعداد كل هذه القواعد الخلقية لكان من الممكن التوصل إلى معرفــة أفضل لما أنجزه النبي ﷺ من أمور تفوق القدرة الإنسانية، ذلك لأن إنسان ذلك العهد كان متصفاً بجميع أضداد هذه القواعد الخلقية، فقام النبي ﷺ بــاقتلاع هذه المفاسد الخلقية من جهة وتنمية كل الأصول الأخلاقية الحميدة في نفوسهم من جهة ثانية وتجهيزهم بها.

لقد أظهر رسول الله ﷺ معجزة في ميدان التربية أيضاً. إذ وضــع أســساً ومبادئ رئيسة لبعض القواعد التربوية للإنسانية التي لها صفة العمق والــشمول وتحتضن الإنسانية كلها في كل عصر وفي كل وقت. وحسب قناعتي الشخصية

---

(١) **صاحب مكس**: أي صاحب جباية وقد أصبح عنواناً للظلم.(المترجم)

(٢) **مسلم**، الحدود، ٢٢، ٢٣؛ **أبو داود**، الحدود، ٢٤؛ **الدارمي**، الحدود، ١٧

المتواضعة فإننا إن استطعنا فهم ما تحتويه هذه المبادئ من أفكار عميقة ووصلنا إلى معرفتها بحق لكسبنا مستوى تغبطنا عليه الملائكة، ولكن ما العمل فنحن لا نزال -كما تقول حميدة قطب- في الطريق، حيث يروى أن موسى عليه السلام أظهر لله تعالى حيرته وعجبه قائلاً له: "يا رب! إنني أرى كثيراً من الناس يمشون في طريقك بعد أن اهتدوا إليك، ولكنهم -ويا للعجب- يغيرون طريقهم ويتوجهون إلى جهات أخرى" فيقول له الله تعالى: "يا موسى! إن هؤلاء لم يتوجهوا نحوي و لم يجدوني... كانوا أناساً في الطريق وغيروا طرقهم."

(نسأل الله تعالى ألا يجعلنا من الذين يتعثرون في الطريق ويضلون سبيلهم).

...أجل، ليس هناك من ضمان، ولا يستطيع أحد أن يضمن عدم انحرافه عند سيره في الطريق إلى الله. كل شيء بيد الله تعالى، لذا نسأله أن يحفظنا من الانحراف ومن الضلال، وألا يدعنا لأنفسنا طرفة عين، وندعوه تعالى أن تتبوأ هذه الأمة المجيدة -التي قل نظيرها في التاريخ- المكانة اللائقة بها بين الأمم.

أجل، عندما تأخذ هذه الأمة مكانها التاريخي اللائق بها فستتوفر أمامنا فرصة أفضل وأكثر إقناعاً وأعلى مستوى لتبليغ الخلق الإسلامي والخلق القرآني. عند ذلك سترى الإنسانية أن ما بحثت عنه في "المدن الفاضلة" كان قد طبق وعيش قبل عصور، وستذهل من هذا الاكتشاف. ونحن نقرأ الآن "جمهورية أفلاطون" ونرى كيف يقترح أفلاطون قيام الفلاسفة بإدارة الدولة... دعوا هذا واعلموا أن هناك عهداً تمت فيه إدارة الدولة بشكل لا يصل إليه حتى خيال الفلاسفة... هاكم عهد بداية الإسلام، وهناك صفحات مشرقة في تاريخ الدولة العثمانية. فلو شكلت الملائكة دولة في السماء لما استطاعت إلا أن تصل إلى ذلك المستوى.

ولكن إلى أن نقوم بشرح الإسلام بهذا المستوى فستسد الأمم آذانها ولـــن تستمع إلينا... صحيح قد يسلم أفراد معدودون منها نتيجة تسلل نور القـــرآن إلى قلوبهم بقوته الذاتية. ولكن لن يحدث إقبال جماعي على الإسلام من قبـــل هذه الأمم إلا عندما تتبوأ أمتنا الأصيلة هذه مكانتها اللائقة بها بين الأمم وتقوم بتمثيل الإسلام أمام العالم.

ونعود إلى الموضوع الأصلي فنقول إن الرسول ﷺ أحدث انقلابـــا يحـــير العقول في ذلك المجتمع الجاهلي الغارق حتى أذقانه في العادات الجاهلية. وهـــذا الانقلاب كان انقلابا شاملاً يحتضن كل شؤون الحياة.

لقد ظهر العديد من العباقرة في التاريخ الإنساني، ونجح قـــسم منـــهم في إحداث بعض التغيير في بعض ساحات الحياة والمجتمع. فمثلاً قد يظهر عبقري في علم الاجتماع فيصل بأتباعه إلى مستوى رفيع في هذا الموضوع، ولكنـــه لا يستطيع شيئاً في ساحة الاقتصاد مثلا، كما يعجز أن يقدم شيئاً في ساحة التربية وعلم النفس، ويفشل تماماً في ساحة الروح ولا يستطيع تقديم أي شيء في هذا الأمر. ومثلاً قد يظهر عبقري في علم الاقتصاد ويـــنجح في رفـــع المـــستوى الاقتصادي للبلد إلى مستوى معين، ولكنه لا يستطيع تقديم أي شيء لبلده من النواحي الاجتماعية الأخرى، ويعجز عن تقديم شيء حول التربيـــة وحـــول مراقبة النفس ومحاسبتها مثلاً. ويظهر غيره في ساحة أخرى وآخـــر في ميـــدان مختلف، ولكن لا يستطيع أحد منهم أن يتوصل إلى الكمال بجميـــع وحداتـــه ومفرداته... ليس هناك من استطاع هذا سوى محمد ﷺ الذي احتضن الحيـــاة كلها وبكل مفرداتها وجوانبها ونقلها إلى الذروة وضمن بقاءهـــا هنـــاك إلى

الأبد... أجل، هو ذروة في الاقتــصاد... وذروة في الاجتمـــاع... وذروة في القيادة والحرب... وذروة في محاسبة النفس... وذروة في النجـــاح في دعـــوة الناس... وذروة في إقامة التوازن بين الدنيا والآخرة... وذروة في النفـــوذ إلى بواطن الأمور وإلى النفوذ إلى ما وراء الوجود... ذروة في كل شيء. أجـــل، فليست هناك حاسة إنسانية ضامرة في نظام تربيته، وليس هنـــاك أي شــــيء تعرض عنده للإهمال... على العكس من ذلك فقد تناول كل شيء ووسع كل شيء ونماه وفتح أمام الإنسان طرق الرقي والكمـــال، وبمعونـــة الله وفـــضله استطاع أن يربي في كل ساحة وفي كل ميدان أفضل النماذج الإنسانية.

الفصل الخامس:
الجوّ الذي صنعه الرسول ﷺ والعباقرة الذين نشأوا في جوّه المعنوي

كان الرسول ﷺ يعرف الأيام المقبلة مثلما يعرف يومه، بل مثلما يعرف راحة يده، وكان هذا كيفية خاصة به. وهذا هو الدرس الذي استنبطناه في صلح الحُديبية. فالرسول ﷺ كان يضع دساتير جديدة تبقى نضرة يانعة رغم تقدم الزمان... يشيخ الزمان ولكن يتجدد شباب هذه الدساتير على الدوام.

قام الرسول ﷺ بتبليغ بعض المبادئ الدينية التي وضعها الله تعالى إلى الناس في عصره وتعليمها إياهم، وقام هؤلاء بإيصالها لنا، فرضي الله تعالى عنهم أجمعين. والقرآن يعلمنا أدب عرفان الفضل فيخبرنا أن ندعو لهم ونقول ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (الحشر: ١٠). فنحن ندعو لهم كلهم انتهاء إلى الصحابة الكرام ﷺ اعترافاً بفضلهم. وعندما نقف عند كل مقبرة ونرفع أيدينا بالدعاء لهم فإننا نعبر بذلك عن امتناننا لهم. لقد أبدى أسلافنا نجاحاً منقطع النظير، وكوّنوا بعد رسول الله ﷺ دولاً متعاقبة. يقول أحد الكتاب الغربيين:

"إن محمداً ﷺ رجل عظيم حقاً. لماذا؟ لأنه شُكّلت ما يقارب مائة من الدول على أسس المبادئ والأنظمة والدساتير التي وضعها، وكان مهندس

مدنيات عديدة، وأرسل الجيوش إلى مختلف أنحاء العالم وعلى رأسها قواد أكفاء نجحوا أيما نجاح في مهماتهم. و لم يكن هؤلاء القواد فاتحين فحسب، بل حملـــوا معهم مشاعل العلم أيضاً ونوروا بهذه المشاعل أرجاء المعمورة وزوايـــا العلـــم والعرفان."

فهذه بغداد وهذه آثارنا في آسيا الوسطى من معابد وكليات ومستشفيات وجوامع لاتزال باقية رغم محاولة الأعداء هدمها وطمـــس معالمهـــا. وهـــذه الأندلس بآثارها القديمة التي تذهل عباقرة العلم والفن... هذه الأندلس بثقافتها وفنها وأخلاقها وباحترامها للقيم الإنسانية العامة... إن ما تبقى من هذه الأثار التي تضاءلت تدريجياً بمرور أكثر من خمسمائة سنة غـــدارة لا تـــزال تأخـــذ بالألباب. ومن يدري ماذا يقول المفكرون من الفنانين والمعماريين والمتخصصين في علم الجمال حول هذه الأثار الرائعة.

أجل، لقد تشكلت الآلاف من بيوت العلم من بعده وعلى الخـــط الـــذي خطه، وظهر مئات الآلاف من رجال العلم والفن وتشكلت مئات من الدول على هدي النظام الذي وضعه... ويعد الأمويون والعباسيون والسلاجقة ودولة القره خانيين والدولة العثمانية من بين هذه الدول، ولا يجوز مقارنـــة الـــدين الإسلامي مع الدين المسيحي، فالمسيحية لم تستطع أبداً تجاوز الكنيسة، فقـــد أديرت الدولة إما بالنظام الثيوقراطي، أي حسب اجتهادات القسس ورجـــال الدين، وإما بالنظم الدنيوية الوضعية أي من قبل أناس يحملون أفكار الفلـــسفة المادية، ولكن رسالة محمد ﷺ ودينه لم يكونا هكذا، إذ أنه تأسس على الأسس الشاملة والعميقة والحية للكتاب والسنة، والمتجددِ على الدوام لكونه منفتحـــاً

على الاجتهاد. فقد يتغير الزمان وتتبدل الصور ولكن محتوياته ومعانيه باقيـــة. فما أن تغرب مدنية في هذه الدنيا أو تزول دولة إلا وتبعتها مدنية أخرى ودولة أخرى... أجل، فمئات من الدول كانت تستمد روحها وفلـــسفتها ومعـــنى وجودها منه ﷺ.

لقد استطاع الرسول ﷺ بنظرته الواسعة المؤيدة من قبل الوحي أن يعـــين الأسس التي تقوم عليها الدولة وأن يستعملها كلاً في مكانه الصحيح والملائم. وشق الطريق المؤدي إلى تهيئة كوادر الدولة وقوادها ورجال العلم والـــصناعة والفن. وقد ربى في عهده العديد من القواد، ورجال الدولة ونشأ على طريـــق فتح العالم قواد عظماء بدءاً من خالد بن الوليد إلى عُقبة بن نافع ومن عقبة إلى الأحنف بن قيس ومن الأحنف إلى طارق بن زياد ومنه إلى محمد بن القاســـم. ولو نظرنا إليه من هذه الزاوية لحسبناه قد كرس وقتـــه للأمـــور العـــسكرية فحسب. وقد نظر كثير من مفكري عصرنا -مثل عباس محمود العقـــاد- إلى عصر النبوة كعصر منفتح على الطاقات الكبيرة والعبقريات العظيمة.

أجل، فإن المدرسة المحمدية هي المدرسة الوحيدة التي استطاعت أن تـــسمو بالمواهب والكفاءات إلى أعلى المستويات فمن قصد هذه المدرسة اســـتطاع أن ينمي كل قابلياته العقلية والقلبية والروحية وجميع ملكاته الأخرى إلى مـــداها النهائي...

فأبو بكر ﷺ رجل عبقري في الحرب وفي إدارة الدولة وفي العلم. وكذلك عمر وعثمان وعلي ﷺ؛ أما خالد وسعد بن أبي وقّاص وأبو عبيـــدة والعـــلاء الحضرمي والقَعْقَاع بن عمرو ﷺ فكانوا عباقرة حرب... ومئات غيرهـــم...

فكأن ذلك العهد عهد عباقرة... بل هو في الأصح عهد لم يهمل في الإنسان ذرة واحدة من قابلياته واستعداداته وكفاءاته، بل غذاها ونماها بأجمعها فكان عامراً بمئات من العباقرة.

فإذا لم يكن عُقبة بن نافع الذي فتح إفريقيا من أقصاها إلى أقصاها بضربة واحدة عبقرياً فمن العبقري إذن؟ لقد أصبح عقبة فارساً وهو في الخامسة عشر من عمره، وتقلد مهاماً مختلفة ومهمة في عهود عدة خلفاء ووصل إلى ساحل المحيط الأطلسي، وقد اشتهر قوله الذي قاله وهو يغوص بجواده في مياه الشاطئ الأطلسي الذي كانوا يطلقون عليه اسم "بحر الظلمات" إذ قال: "يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك."(١)

ومن المدرسة نفسها نجد طارق بن زياد الذي كان عبداً بربريا، فنراه ينتصر بجيشه البالغ ١٢٠٠٠ جندي على الجيش الإسباني الذي كان تعداده ٩٠-١٠٠ ألف جندي وأن يصل في مدة قصيرة إلى قصر الملك في "طُلَيطُلة / توليدو (Toledo)".(٢) وكان طارق أيضاً قائداً عبقرياً وفارساً عظيماً. والأمر نفسه وارد بالنسبة لعلاء الحضرمي الذي كان قائداً عظيماً، حتى قيل في عهد عمر بن الخطاب ﷺ أنهم لا يستطيعون استغلال كل هذه الكفاءات، حتى أنهم اضطروا إلى إصدار أمر إلى علاء الدين الحضرمي بالتوقف عن الحرب في البحرين. ولعلاء الحضرمي تاريخ حياة مليء بالعبر. ويقول المؤرخون بأنك لو

---

(١) «**الكامل في التاريخ**» لابن الأثير ١٠٦/٤

(٢) «**الكامل في التاريخ**» لابن الأثير ٥٦٢/٤

نقلت خالد بن الوليد إلى موضع علاء الدين، ونقلت علاء الدين إلى موضع خالد لما تبدل أي شيء ولما حدثت أي ثغرة.

كيف حدث هذا؟ كيف ظهر كل هؤلاء العباقرة والعظماء في عهد واحد..؟ سعد بن أبي وقّاص كان عبقريا، فلو تتبعت آثاره في فارس لوصلت إلى هذه القناعة... أبو عبيدة بن الجراح كان عبقريّاً... وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان، ثم دهاة آخرون في سلسلة العبقريات هذه بعد الرسول ﷺ... ولولا هؤلاء لما كان في الإمكان قطع الصحارى والوصول إلى أسوار الصين وإلى جبل طارق، ولما كان في الإمكان الاستيلاء على كل هذه المناطق في فترة قصيرة جدّاً لا تتجاوز ٢٥ سنة، وما كان في الإمكان أيضاً تأسيس الأمن والطمأنينة في هذه المناطق وإدارتها إدارة جيدة، ولما كان في الإمكان بقاء هذا النظام طوال ١٢ عصراً في الذروة رغم الدنيا كلها ورغم مقاومة الأديان السابقة له وقيامها بالاعتداء وبالتضليل.

أجل، لقد كانت هذه العبقريات التي كان الوحي منبعها وملهمها هي التي يسرت حكم العالم عصوراً عديدة بقبس من النظام النبوي. فكأن هؤلاء العباقرة أخذ كل منهم قبساً من شمس الشموس رسول الله ﷺ فأنجزوا مهمات كبيرة وبمقياس عالمي. ولا أدري أيمكن أن نتصور عهداً مثيلاً لذلك العهد..؟ لا أقول نشاهد ولكن أقول نتصور... نتخيل... فالأسماء التي أدرجتها لكم بسرعة والمهام التي أنجزوها يحتاج كل منها إلى بحوث كاملة. وبين العبقريات العسكرية والإدارية التي رباها الإسلام لم نذكر سوى بعض الأسماء الأولى التي خطرت على بالنا، أما شرح كل تلك العبقريات فعمل يحتاج إلى مجلدات، و لم

يكن في إمكان هذا الفصل الصغير أن يستوعب كل هذا، و لم ندخل إلى هـذا الموضوع إلا بصورة غير مباشرة وذلك عندما تحدثنا عن رسالة الرسـول ﷺ والجوانب المتعلقة بهذه الرسالة، وكل أملي وتطلعي هو قيام أهل الاختـصاص بتناول هذه المواضيع وشرحها بشكل واف. وعند ذلك سوف تتوضح المدرسة المحمدية بكل أبعادها وسيهتف كل بُعد منها: "محمد رسول الله."

أ. **عباقرة العلم لهذه المدرسة**

كما كانت هذه المدرسة تفتح أبوابها لعباقرة الحرب ولعباقرة رجال الدولـة فقد كانت مفتوحة الأبواب للعلم بالدرجة نفسها، لذا فقد ربـت وخرّجـت العديد من رجال العلم ورجال الفكر وعلماء القانون والمجتهدين والمجددين. فليس من السهل وليس في إمكاننا هنا سرد أسماء كل رجال العلم الـذين نـشأوا في ظرف ثلاثة قرون بدءاً من عهد الخلفاء الراشدين. ولكننا سنكتفي بتناول ابـن مسعود ﷺ الذي كان راعياً في مكة وذلك كأنموذج فقط، فهذا يكفي هنا.

أصبحت الكوفة بفضله مركزاً علميّاً، ونشأ في مدرسته هذه المئـات مـن العلماء الأجلاء في الفقه والحديث وعلم الكلام أمثال الأسود بن يزيد، وعلقمة بن قيس النخعي وإبراهيم النخعي وحمّاد بن أبي سليمان وأبي حنيفة، وكلـهم يدينون له بالفضل. ولو تناسينا نحن هذه الحقيقة الكبيرة فإن تاريخ العلم سيقيم هذا ويسجله رغم أنف المعاندين.

١. **في مجال الفقه**

سنأخذ أنموذجا واحداً ونشرحه باختصار كمثال لغيره من العلماء الكبـار

الـــذي نعتذر إليهم كلهم لعدم اســـتطاعتنا ذكرهم كلهم هنـــا.

من كان أبو حنيفة..؟ كان أبو حنيفة عالماً كبيراً وواضع مذهب... جمـــع حوله في حلقات الدراسة والتعليم رجالاً أذكياء في ذلك العهد المبكر الـــذي كان العلم والثقافة فيه تنقل مباشرة بطريقة التقريـــر والإمـــلاء في حلقـــات الدراسة. وقد شغل أحد طلابه منصب قاضي القضاة وهو الإمام أبو يوسف؛ ومن طلابه المعروفين الإمام محمد بن الحسن الشيباني والإمام زُفر، كمـــا درس عنده الإمام وكيع الذي تلقى الإمام الشافعي العلم عنه... أي كـــان أســـتاذ الأساتذة، وضع توقيعه على العصور وخاطب الأجيال الآتية من بعده وأصـــبح إماماً لمئات الملايين من المسلمين. فما أملاه على تلاميذه الأوائل ولاسيما على الإمام محمد قام شمس الأئمة الإمام السرخسي بـــشرحه في كتابـــه المـــشهور "المبسوط" المؤلف من ثلاثين مجلّداً..[1] والحقيقة أن الإمام السرخسي أملـــى هذا الكتاب القيم وهو سجين في قاع بئر على تلاميذه المتحلقين حول البئر... ومن الطرائف المروية أن أحد تلاميذ الإمام السرخسي قال له يوماً بأن الإمـــام الشافعي كان يحفظ ثلاثمائة صحيفة من الحديث، فقال الإمام السرخسي بكل تواضع: إذن، فقد كان يحفظ زكاة حفظي للحديث.[2]

كان الإمام الشافعي أيضاً عبقرياً وشخصية علمية مرموقة. وكذلك الإمام مالك وأحمد بن حنبل ﷺ أجمعين. والآن لنسأل مرة أخرى: مـــن هـــو أبـــو حنيفة؟ أكان تلميذاً لأحد صحابة رسول الله ﷺ مثل ابن مـــسعود؟ أم كـــان

(١) أي جزءا من أربعين جزء مما يحفظ. (المترجم)

(٢) «**أصول السرخسي**» للسرخسي ١/٥

تلميذاً لأحد التابعين أمثال علقمة؟ كلاَّ... بل كان تلميذ تلميذهم... أي تلميذ حمّاد بن أبي سليمان... صحيح أن حمّاداً كان أيضاً فقيهاً كبيراً إلا أنه كان تلميذاً لتلميذ رسول الله ﷺ.

أجل، فبينما كان العالم كله يسبح في الظلام فاقدا أمله حتى من بزوغ الفجر الكاذب، كان هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين نوروا الإنسانية والعالم ينشأون في مدرسة رسول الله ﷺ. فهؤلاء العلماء الأعلام الذي نوروا العالم بعلومهم وعرفانهم كانوا في الذروة من علومهم رغم كثرة عددهم... أي أن قيمتهم لم تكن ترجع إلى الندرة... فمن الممكن أن نذكر ما يقارب الخمسين من العلماء الكبار وفي مستوى أبي حنيفة في الكوفة آنذاك أي في عهد أبي حنيفة... ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة بالعامل الجغرافي أو الزمني، بل كانوا نتيجة الفيوض النورانية للمدرسة التي انشأها الرسول ﷺ. فبفضله تربى –ومن مجتمع بدوي– جمهرة من العلماء أناروا أرجاء العالم أربعة عشر قرنا، وسينيرون العالم إن شاء الله إلى يوم القيامة.

٢. **في مجال التفسير**

التفسير بالنسبة لنا بحر بذاته، ولكنه يعد قطرة في بحره ﷺ... إنه القطرة التي تمثل البحر وتشير إليه. فابتداء من علي رضي الله عنه إلى ابن عباس رضي الله عنه ثم إلى مجاهد وسعيد بن جبير ثم إلى ابن جرير وفخر الدين الرازي وابن كثير إلى المفسرين الأعلام في عهدنا الحالي نرى سلسلة نورانية متصلة الحلقات من كبار الدهاة والعباقرة الذين يشكلون وحدهم –بانتسابهم إليه– أكبر دليل على نبوة سيدنا محمد ﷺ وكونه سيد الإنسانية وسيد المرسلين.

فابن جرير مثلاً رمزٌ للعبقرية والدهاء، فعندما تطلع على تفسيره تراه يفسر الآيات والأحاديث تفسيراً يجاوز به الزمن ويتناول تفسير الآيات التي تتناول السماء والأرض وكيف أنهما كانتا وحدة واحدة ثم انفجرت... وتراه يتناول المبادئ الأساسية لهبوب الرياح ونزول الأمطار، أي تَناوَل مواضيع لم تُفهم حق الفهم إلا بعد مرور ألف عام. وقد ظهرت من البحوث العلمية التي جرت حول الكتب التي ألفها أن معدَّل كتابته في كل يوم من أيام حياته هو ١٥ صفحة. فإذا لم يكن ابن جرير عبقرياً فمن العبقري إذن؟

وفي مجال التفسير إن انتقلنا من ابن جرير إلى فخر الدين الرازي، ومنه إلى الإمام السيوطي الذي ألف كتباً ضخمة بعد أن قرأ مئات التفاسير، ومنه إلى العلماء الكبار في عصرنا الحالي نرى أن هناك أناساً برزوا في ميدان التفسير ونبغوا فيه إلى درجة لو أن واحداً منهم ظهر في الغرب لنصبوا له التماثيل وافتخروا به أمام العالم أجمع.

٣. في مجال الحديث

أما عمالقة علم الحديث فهم يشغلون مكاناً بارزاً ومكاناً فضيلاً... فكل من البخاري والإمام مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والإمام أحمد بن حنبل والدارقطني والبيهقي والدارمي يعدون أعلاماً من أئمة الأعلام في ساحة علم الحديث، وكل واحد منهم يكفي العالم وحده. وليس من الممكن طبعاً الوقوف عند كل واحد منهم والقيام بتحليل بنيتهم العلمية فهذا خارج هدفنا هنا. ولكننا نكتفي هنا بالقول بأن الإمام البخاري بعد أن حفظ ٦٠٠,٠٠٠ من الأحاديث أدرج أربعة آلاف حديث غير متكرر فقط في

صحيحه... وكان يبدي اهتماماً ودقة كبيرة عند أخذ الحديث. فكان يتوضأ لكل حديث ويصلي ركعتين[1] مثل هذا الإمام الكبير كان مجرد تلميذ من تلاميذ الرسول ﷺ... وفي إحدى المرات قضى أياماً طويلة في سفر شاق ومرهق ليأخذ حديثاً من شخص، ولكنه عندما رأى هذا الشخص يوهم حصانه لكي يأتيه بأن في حجره شعيراً بينما هو فارغ... عندما رأى هذا رجع دون أن يكلمه ودون أن يأخذ الحديث الذي قطع كل هذه المسافة من أجله. وعندما سئل عن السبب قال: "إن الشخص الذي يريد خداع فرسه قد يخدعني أنا أيضاً." ومن يدري فكم من عالم من علماء الحديث أبدى كل هذه الدقة والحرص عند القيام بجمع وتدوين الأحاديث.

٤. في مجال العلوم الوضعية

بعد مطالعة الكتب العديدة التي كتبت حول تاريخ العلم القديم والحديث والمقارن... المحايدة منها وغير المحايدة لا يملك الإنسان إلا الشعور بالفخر بماضينا المجيد. ففي العهود الذهبية للمسلمين كتبوا في الطب والرياضيات والهندسة وفي جميع العلوم الطبيعية مؤلفات كانت تتنافس بجدارة مع كتب الفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام. فهناك الجابر مرشد علم الجبر وابن سيناء والخوارزمي والزهراوي العالم في الجراحة والذي ظلت كتبه التي كتبها في علم الجراحة تدرس في الغرب لعدة عصور حتى أن إحدى المجلات العلمية وصفته تحت عنوان "العالم الذي عاش ألف عام..." المئات والآلاف من أمثال هؤلاء هم خريجو مدرسة رسول الله ﷺ:

---

(١) «**هدي الساري**» لابن حجر العسقلاني ص٩

وإن الإنسان ليتساءل: لماذا لا يعرف معظمُنا هؤلاء حاليا؟ إن عدم رؤية هؤلاء هي من أخطاء الحس. ففي الغرب لا يمكن عدم رؤية شخصياتهم، ذلك لأن هؤلاء يعدون مثل تلال ترتفع وسط السهول لا يمكن أن تخطئها الأبصار وإن لم تكن مرتفعة جداً. أما الذرى الموجودة عندنا فهي مستمرة ومتكاملة وعدم التمكن من قياسها يؤدي إلى الجهل بهم، أي أنهم مثل الذرى المتقاربة بعضها من بعض لا توجد بينها وديان لكي تعرف هذه الذرى. أما نحن فقد بعدنا عن خصلة الوفاء فكانت هذه هي حالنا، فلم نستطع تقييم تلك الآثار بينما استطاع الغرب الاستفادة منها وحقق عصر النهضة عنده... فالخطأ ليس في المبادئ ولكن في الأشخاص الذين عاشوا عالة على الماضي، فعلى الرغم من كونهم داخل بحر فإنهم لم يعرفوا قيمة ذلك البحر.

ب. **أبطال عالم الروح**

والدرجة الثانية من أبعاده ﷺ هي الولاية... فباسم الولاية خرّج أشخاصاً وفتح أمامهم باباً إلى أوج الكمال الإنساني إلى درجة يقول أحدهم: "لو كُشف الغطاء ما ازددتُ يقيناً"(١) ووصل بعضهم إلى درجة رأى فيها بعض أمور عالم الغيب، وقضى قسمٌ منهم حياته في تدقيق أسرار القرآن والسنة لفهم إشاراتها وإيماءاتها... فها هي "الجلجلوتية" وها هو "نهج البلاغة" وها هو "المثنوي" و"فتوح الغيب" و"الفصوص" و"الفتوحات".

لقد قال "إديسون (Edison)" في لحظة من لحظات عرفان الجميل: "لقد

---

(١) «**الأسرار المرفوعة**» لعلي القاري ص١٩٣

تعلمت الطريق المؤدي إلى الكهرباء من كتاب الفتوحات المكية لمحيي الدين بن عربي."

إن الفتوحات المكية ببيانها المليئ بالأسرار موجودة في أيدينا، صحيح أن هناك نقاشاً حول صحة استنباط الكهرباء والألكترونات والمصباح الكهربائي من التعابير القرآنية المحملة بالأسرار، إلا أن النقاش لا يجدي في موضوع ظهر تأويله. إن الإنسان يستطيع التوصل إلى الكثير من الأسرار عن طريق الولاية أو عن طريق البحث في المختبرات العلمية، فإن عجزنا نحن عن الوصول في السابق وعجزنا حالياً فهذا يرجع إلى فقرنا في التفكير المنطقي وضعف قلوبنا وعجز إرادتنا وعزمنا. إذ ليس من السهل فهم ابن عربي أو مولانا جلال الدين الرومي أو الإمام الرباني أو بديع الزمان سعيد النورسي وهم من الأشخاص الذي سبقوا عصورهم، بل ليس من السهل إدراك ما اكتشفوه. فكيف نستطيع فهم الشيخ النقشبندي أو معروف الكرخي أو الشاذلي أو الشيخ الكيلاني أو الشيخ الحَرّاني، علما بأن كل هؤلاء يعدون تلاميذ في مدرسة الرسول ﷺ، وكانوا مثل الفراشات الدائرة حول نور شمعته ﷺ... كانوا عشاق النور فانفتحت أعينهم على عالم الغيب. يقول الإمام السيوطي إنه رأى الرسول ﷺ مرات عديدة في اليقظة وليس في المنام.(١) فإذا كانت عيونهم قد تفتحت هكذا فبفضل ما تعلموه من الرسول ﷺ، وإذا كانوا قد هرعوا إلى النور فبقوة جذبه ﷺ.

(١) «**جامع كرامات الأولياء**» للنبهاني ١٥٨/٢

أما نحن فقد حبسنا ضمن سجن المكان ذي الأبعاد الثلاثة وضمن الزمان الذي هو بُعد نسبي، أما هم فقد اجتازوا أبعاد الزمان والمكان إلى بُعد آخر لا ندركه. هؤلاء هم تلاميذ الرسول ﷺ وسينشأ في المستقبل إن شاء الله تعالى أمثالهم. إن الولاية ليست من ساحتي، إذ لست إلا شخصاً معجباً بهم ولا أستطيع أن أبلغ كعبهم، وإن شاء الله تعالى ستنفتح الكثير من العيون على الكثير من الحقائق، وعند ذلك سيعلنون تصديق ما قلت.

إن الرسول محمد ﷺ مرشد كبير إلى درجة أن تلاميذه سبقوا الجميع في عالم الروح وتربية النفس وسبقوا كل مدعي الإرشاد حاليا. وإذا جرت الأمور في سيرها الطبيعي فإنهم يستطيعون القول من الآن: "إن مستقبل العالم لنا." أجل، إن محيي الدين بن عربي سحر الغرب أيضاً إلى درجة أن الآلاف من الألمان وصلوا إلى نور اليقين عن طريق الأنوار التي نشرها ابن عربي وأمثاله. فإذا كان عبد القادر الكيلاني أو جلال الدين الرومي أو الإمام الرباني أو بديع الزمان سعيد النورسي يحولون القلوب ويوجهونها نحو الرسول محمد ﷺ فهذا بفضل القوة القدسية التي استمدوها من مرشدهم ومن أستاذهم ﷺ.

كان جلال الدين الرومي رجلاً في القمة – مع أن بعضهم قد أفرط في حقه– إلا أنه كان من العمالقة الذين فتحوا قلوبهم على العالم اللانهائي وسبحوا بفكرهم في عالم الملكوت... لقد كان ممثلاً للعشق والوجد الإلهي... أنموذجا للأخلاص والتفاني، ومن أكبر المكتشفين لطرق الوصول إلى الحقيقة المطلقة والدالين عليها بأسلوب ضرب الأمثلة وإيراد القصص. كما كان في الوقت نفسه من أبطال الكلمة والبيان.. يستطيع بعصاه السحرية فتح القلوب وسحرها.

ج. **أرباب البيان**

لقد كان رسول الله ﷺ سلطان الفصحاء للعرب والعجم... وهناك شهود ملء الدنيا على ما نقول، فاعتباراً من حَسّان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة إلى كعب بن زهير بن أبي سلمى. ومن لبيد إلى الخنساء بنت زهيرة... ثم من أدباء العصر الأموي والعباسي والسلجوقي نرى أن جميع أمراء البيان وفرسان البلاغة يعدون الرسول ﷺ في أوج قمة البلاغة ويزينون كلامهم ببيانه وبفصاحته وبأقواله الجامعة المانعة ولا يقصرون في إبداء الاحترام والتوقير له...

وهذا نشاهده بكل وضوح عند الشعراء الإيرانيين. وينقل لنا حيدر بامّاد هذا القول للشاعر الألماني "غوته (Goethe)": "نرى في التاريخ الإسلامي ولاسيما في العهود التي حكم فيها العباسيون والسلاجقة وإيران بروزَ نبوغ شعراء عمالقة في إيران، ولكن العالم الإسلامي اختار من بين هؤلاء أربعة أو خمسة من الشعراء فقط."

ويستمر "غوته (Goethe)" -وهو الأديب الذي فتح عهداً جديداً في الأدب الألماني بروايته "فاوست (Faust)"- في كلامه فيقول: "لقد نبغ في هذا البلد أدباء عمالقة. ولكن العالم الإسلامي اهتمّ بخمسة منهم فقط وهم: مولانا جلال الدين الرومي، وحافظ والفردوسي والأنوري ونظامي. وأهمل الباقين، أي لم يعدهم شعراء. ومن الذين أهملوا ولم يعتبروا من الأدباء أشخاص تمنيت لو أنني كنت تلميذاً على أيديهم."

أجل، لا تندهشوا! فهذه هي الحقيقة... ولننبه إذن لمن نكيل المدائح وننفخ فيهم كالبالون ونهمل عظماءنا... إن كنا لا ندري فلندر... لا يوجد هناك

أديب غربي لا يقلد "حافظ الـشيرازي"، والأدب العثمـاني متـأثر كـثيراً بـ"حافظ" وبروح وعالم "حافظ..." أجل، فكل هؤلاء الأدباء سواء أكـانوا إيرانيِّين أم عرباً أم أتراكاً... كلهم من تلامذة مدرسـة الرسـول ﷺ حيـث استخدموا المعاني التي تلقوها من هذه المدرسة.

هناك أمور كثيرة حوله ﷺ كنت نويت أن أعرضها ولكني أقف هنا لكـي لا أطيل الكلام... ومن بين هذه الأمور الجانب العسكري فيه ﷺ.

القسم الثالث

لا مثيل لرسول الله ﷺ

في حلّ المعضلات

هناك بُعد آخر في فطنة رسولنا الكريم ﷺ وهو قيامه بحل كل المشاكل والمعضلات التي تظهر أمامه -مهما كان نوعها- بكل سهولة ويسر وكأنه يستل شعرة من عجين، وهذا دليل من أدلة رسالته ونبوته. هناك أمور مهمة يجب توفرها في كل إداري ناجح وفي كل قائد وزعيم نسطر بعضها فيما يأتي:

١. يجب ألا تكون الرسالة التي يحملها تتناقض مع الحياة أو تتصادم معها. ويجب أن يكون مصراً على دعوته متمسكاً بها واثقاً أنها صالحة الآن وستكون صالحة في المستقبل. فكما يستطيع أي إنسان أن يشرح بكل ثقة ويصف بكل دقة حادثة رآها بأم عينيه ولا يخشى أن يتهم بالكذب في شهادته تلك، لأنه واثق من نفسه ومطمئن إلى قوله الحقيقة، كذلك لا بد أن يكون القائد أو الزعيم واثقاً نفس هذه الثقة من صحة الرسالة التي يحملها وكونها حقا وخيراً. بل إن ثقته وحدها لا تكفي إذ يجب ألا تكون رسالته متناقضة مع الحياة ومعاكسة لها، أي يجب ألا تقف أمام رحى الحياة الدائرة.

٢. على القائد أن يكثف جهوده لتربية وإعداد الأفراد، وأن ينشغل على الدوام مع العنصر الإنساني، وأن تأخذ الثقافة محلا مرموقاً في جهوده.

٣. على القائد أن يعرف عناصر مجموعته معرفة جيدة، ويعرف لمن يعهد

بمسؤولية معينة، ويعرف جيداً مدى قابلياتهم والأعمال التي يستطيعون إنجازها. وعليه أيضاً أن يزن خططه بشكل لا يتزعج من سرعةِ وتيرة التخطيط لا الفردُ الاعتيادي في المجتمع ولا أنشطُ الأفراد.

٤. يجب أن يكون القائد منفتح الصدر لحل مشاكل أتباعه. وهذه المشاكل قد تكون مشاكل فردية أو عائلية، أو إدارية أو قانونية أو اقتصادية أو اجتماعية، فعلى القائد أن يكون قادراً على حل جميع هذه المشاكل.

٥. يجب أن تكون تعليمات القائد وأوامره وتوجيهاته من النوع القابل للتطبيق، فالقائد الناجح يبتعد على الدوام عن التعليمات والاقتراحات الخيالية التي لا يمكن تطبيقها، أي على القائد أن يحدس أحداث اليوم وموضوعاته من اليوم السابق، وأن يحدس أمور المستقبل منذ اليوم ويضع خططه على أساس هذه الرؤية البعيدة لكي لا تعرقل خطة اليوم الحالي التنفيذ في المستقبل وإلا تضاربت أعمال اليوم وأعمال المستقبل وعملت إحداهما ضد الأخرى. أجل، فالقائد الحقيقي يجب أن يحدس ما ستؤول إليه الحوادث الاجتماعية الحالية في المستقبل، لكي لا تفسد المفاجآت المستقبلية أعماله وخططه الحالية.

إذن، إن المبادئ الواقعية وغير الخيالية للقائد يجب ألا يسبقها الزمن، بل يجب أن تحتفظ هذه المبادئ بنضارتها وحيويتها على الدوام، بحيث أن إنسان كل عهد عندما يتوجه نحوها ويقبل عليها يجد فيها دواء لمشاكله وحلا لمعضلاته كمن يشرب من ماء الحياة، وتكون هذه المبادئ عصية على الزمان، فلا تتبدل بتبدل العصور والعهود، بل تزداد شباباً وحيوية على مر العصور.

ويكون على الدوام أفضل وأحسن من يطبق اقتراحاته وتعليماته ويعيشها بنفسه ويراعي أدق تفاصيلها.

عندما نطالع هذه المبادئ التي هي بعض شروط القيادة الناجحة ونأخـــذها بنظر الاعتبار نرى أن أفضل وأنجح قائد في تاريخ الإنسانية كلها هو محمد ﷺ صاحب الفطنة العظمى، وهذا يشمل جميع الأنبياء أيضا، ذلك لأنه كان قمة لم يصل إلى مستواها أحد في تطبيق جميع هذه المبادئ للقيادة الناجحة.

صحيح أننا نعتقد هذا من منطلق إيماننا، إلا أن الغرب بدأ يـــدرك هـــذه الحقيقة باستخدام الحاسبات والعقول الألكترونية، وهذا شـــيء مفـــرح لنـــا. والحادثة التي عدت بنظر الكثيرين مفاجأة كبيرة خُلاصتها وأساسها هي القيام بتثبيت الأوصاف والصفات والمميزات التي جعلت من أشخاص عديدين رجالاً عظماء وقادة كباراً ثم إعطاء هذه المعلومات إلى العقول الألكترونية لكي تقوم بترتيب تسلسل هؤلاء العظماء حسب درجة عظمتهم، وبعد عمـــل طويـــل وشاق تم هذا الأمر وظهر على الشاشة اسم رسولنا ﷺ... أجل، لقد ظهر لهم أن أكبر قائد وأكبر زعيم وأعظم رجل هو رسول الله ﷺ.(١) والآن لنتنـــاول هذه المبادئ التي ذكرناها ونعطي حولها بعض الأمثلـــة الشاخـــصة بعـــد أن ذكرناها بشكل تجريدي:

---

(١) يشير الكاتب هنا إلى قيام أحد الكتاب الأمريكيين، وهو "ميشيل هارات" بتغذيـــة الحاســـب الألكتروني بالمعلومات الضرورية لمعرفة أهم مائة شخص أثروا في التـــاريخ الإنـــساني، فكـــان الرسول ﷺ هو الأول في تلك القائمة. وصدر كتاب حـــول هـــذا اسمـــه "The Hundred". (المترجم)

الفصل الأول:

رسالة القائد والحياة

لقد أتى رسولنا ﷺ بمبادئ عديدة للإنسانية، و لم يكـــن أي مبـــدأ منـــها يتصادم مع الحياة أو يتناقض معها. ثم إنه ذكر هذه المبادئ وهو واثق منها تمام الثقة ودون أن يحمل أي شك أو تردد أو ريبة حولها.

تناول في أحاديثه كل شيء تقريباً... من العرش إلى الفرش... من الجنة إلى جهنم... من الإنسان الأول حتى يوم القيامة... تناول كل هذه الأمور بالشرح والإيضاح. واهتم على الأخص بشؤون أمته والحوادث الآتية المتعلقة بها حـــتى إنه عدد بعضها وأعطى لها الأسماء وكأنه يراها على شاشة تلفزيـــون دون أي تشوش. أجل، لقد كان واثقاً من كل ما يقوله، ذلك لأن الله تعالى بسط أمام ناظريه الكتاب المبين والإمام المبين وأراه الشيء الكثير من ألواح القدر... كان يرى ذلك ثم يشرحه، لذا فمن الطبيعي أن تكون المبادئ التي أتى بها مثل هـــذا الشخص العظيم مبادئ أبدية.وما أجمل ما قاله سلطان الشعراء نجيب فاضل:

الغد لنا... طبعاً لنا...

إن أشرقت الشمس أو غربت... فالأبد لنا.

يشرح هذا الشاعر بكلماته هذه مدى ثقته بمبدئه وعقيدته. وعندما نطـــالع كلمات هذيين البيتين على ضوء دعوة الرسول ﷺ فإنها تأخذ أبعاداً عميقة...

الشمس تشرق وتغرب... والأيام والسنين والعصور تمضي، ولكن الرسالة التي أتى بها رسول الله محمد ﷺ ستبقى خالدة إلى الأبد.

أ. كان واثقاً وذا عزم

يروي ابن إسحاق رحمه الله أن قريشاً قصدت أبا طالب للتفاوض مع رسول الله ﷺ فاستدعى أبو طالب النبي ﷺ وقال له: هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك. كان رسول الله ﷺ واثقاً من نفسه ويعرف ما يريده فقال: «أريد منهم أن يقولوا كلمة واحدة يحكموا بها العرب والعجم.» ففرح القوم وقالوا: فديناك بأنفسنا... وما هي؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله تملكوا بها العرب والعجم.»[1] وفعلاً حكموا العرب والعجم...

وما أكثر الدول والأمم التي أسرعت إلى ظلال الإسلام... وأمتنا الأصيلة هذه انتبهت إلى الإسلام مبكراً وأسرعت إليه قبل أحد عشر عصراً دون أن تضيع وقتاً كثيراً... تأملوا..! لقد أسرعت جماعة تتألف من ألف خيمة إلى الإسلام في ظرف سنة واحدة ودون أن يكون هناك أي إكراه. وهذا الإقبال المخلص على الإسلام هو الذي يسر لهم رفع راية الإسلام في العالم أجمع والدفاع عنه طوال عشرة قرون تقريباً... فظهر منهم حملة لراية الإسلام مثلما كان حمزة ومصعب والزبير وابن جحش من الحملة الأوائل لراية الإسلام في

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ٣٦٢/١؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٥٨/٢-٥٩؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٥٢/٣؛ «**المستدرك**» للحاكم ٤٣٢/٢

عهد النبي ﷺ... جاءوا من سفوح جبال الهملايا ليحملوا مسؤولية الذود عن هذه الراية وعن هذا الدين طوال عصور وعصور (ندعو الله تعالى أن يحفظ هذه الأمة النجيبة في طريق الدفاع عن الإيمان وعن القرآن).

أجل، لقد كان رسول الله ﷺ يبلغ رسالة ربه بثقة دون أن يتنازل عن شيء منها ودون أن يساوم على شيء منها... كان واثقاً من يومه ومن غده إذ يقول لهم «إن اتبعتموني دانت لكم العرب والعجم وسيكون البيت الحرام مثابة للناس وأمنا...» وعندما حان الوقت المناسب تحقق كل ما قاله لهم، ففي كل عام يطوف الملايين من الناس حول البيت الحرام مثلما ينجذب الفراش إلى هالة النور. وحينما قال النبي ﷺ هذا القول لم يكن هناك أي أمارة أو إشارة أو علامة تؤيد هذا القول... أجل، فإن من الضروري أن يثق الزعيم والقائد بما يقوله لكي ينشر الثقة بين الآخرين.

ينقل الحاكم في المستدرك حادثة عَدِيّ بن حاتم التي سبق وأن ذكرتها وأستسمح القراء في إعادتها هنا... وعدي هو ابن حاتم الطائي المشهور في التاريخ العربي بسخائه وجوده. ينقل لنا عدي بن حاتم ﷺ حادثة إسلامه وكيف زار النبي ﷺ وهو متردد فقال له النبي ﷺ: «فلعلك إنما يمنعك عن الإسلام أنك ترى من حولي خصاصة. إنك ترى الناس علينا إلباً.» ثم قال: «هل رأيت الحِيرة؟» قلت: لم أرها وقد عرفت مكانها قال: «فليوشكن أن الظعينة ترحل من الحِيرة بغير جوار حتى تطوف بالبيت، وليفتحن علينا كنوز كسرى»، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز، ويوشك أن لا يجد الرجل في ماله صدقة» وقال: فرأيت الظغينة ترحل وأحلف

ليفتحن الثانية بقول رسول الله ﷺ وهو الحق.[1]

هكذا كان رسول الله ﷺ يخاطب بكل ثقة أصحابه والذين التفوا من حوله. ولم يكن يدور بخَلَد أحدهم ذرة واحدة من الشك أو الريبة حول ما يقوله، كما أن الأيام كانت تؤيد ما يقوله عندما يحين أوانه.

ب. **طلب الأغنياء التمايزَ**

كان الفقراء أول من استجابوا للرسول ﷺ، وكانوا في الأغلب من الشباب، أما الأغنياء من مشركي قريش من الذين تحجرت أدمغتهم في بوتقة الكفر فكانوا في عناء دائم. ولكن عندما ظهر سر الآية ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً﴾ (النصر: ٢). أدرك هؤلاء أيضاً ضرورة الدخول في دين الله. ولكن معظم من كانوا حوله في البداية كانوا من الشباب... من الشباب الفقراء.

ولم يكن أشراف مكة وأغنياؤها ورؤوس القوم مرتاحين من هذا، فكانوا يراجعون الرسول ﷺ ويطلبون منه أن يخصص لهم يوماً لا يدخل فيه أحد عليه غيرهم... أي لم يكونوا يرغبون في حضور الفقراء أمثال بلال وعمّار وياسر وخبّاب، فهم أشراف القوم فكيف يجلسون معاً مع الفقراء والدهماء**!**[2] ولأنهم اعتادوا في ذلك المجتمع على مثل هذا التصرف والسلوك فإنهم عدوا طلبهم هذا طلباً اعتيادياً وطبيعياً ومشروعاً. ولكن الأمر لم يكن كما يتصورونه، ومع أنهم

---

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ٢٥٧/٤؛ «**المستدرك**» للحاكم ٥١٨/٤

(٢) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٢٩/٣

كانوا يتوقعون من الرسول ﷺ الترحيب بطلبهم هذا إلا أن الله تعالى كان قد نبه نبيه قائلاً له ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: ٥٢).

أنت رجل الشؤون والمهمات الكبرى، فلا تشغل نفسك بالحسابات الصغيرة أمثال طرد المؤمنين الفقراء رجاء هداية الأغنياء... لأن هذا ظلم، وأنت بعيد عن الظلم... أجل، إن من الظلم أن تطرد الفقراء لكي يرضى عنك الأغنياء. وعصم الله تعالى نبيه –وهو أعدل إنسان– منذ البداية في هذا الأمر.

ويتناول الموضوع نفسه في سورة الكهف فيقول لنبيه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ (الكهف: ٢٨).

كان القرآن يقول له: كن مع الذين يدعون ربهم ويذكرونه على الدوام، ولا تصرف نظرك عنهم إلى غيرهم، وعاشر هؤلاء لأن رحمة الله معهم، فقد يرحم الله الناس بفضل هؤلاء... بفضل عمّار أو ياسر أو بلال وعلي وخبّاب وابن مسعود، فهؤلاء هم مطمح أنظار الرحمة الإلهية وقد يدفع بهم الله البلايا فكأنهم يقومون بوظيفة مانعة الصواعق. كان القرآن الكريم يقول هذا في الوقت الذي لم يكن حول الرسول سوى أربعة أو خمسة من الفقراء... ولكنه مع هذا كان متفائلاً وواثقاً من المستقبل ويؤمن بأن معظم هؤلاء المتمردين

العتاة سيسلسون قيادهم وسيقبلون على الإسلام وسيضعون القرآن فوق رؤوسهم، لذا فلماذا يقوم بطرد المؤمنين الفقراء المتحلقين من حوله من أجل هؤلاء؟ ثم كيف يستطيع الرسول ﷺ إبعاد هؤلاء عنه وهو الذي كان يقول: «إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: عليّ وعمّار وسلمان.»[1]

أجل، فبينما يشتاق الجميع إلى الجنة فإن الجنة تشتاق إلى هؤلاء... تشتاق إليهم كما يشتاق العاشق إلى معشوقه، وكما تشتاق العين إلى الجمال وكما يشتاق الوجدان إلى الرؤية والقلب إلى المشاهدة.

كان سيد المرسلين يعلم أن هذا النفر المحيط به هو بالمستوى الذي يستطيع أن يحكم العالم وأن يجري انقلابا كبيرا فيه، لذا كان يتصرف حسب علمه هذا، لذ لم يكن يشك لحظة واحدة أن الدنيا كلها من شرقها إلى غربها ستدين بالمبادئ وبالحقائق التي جاء بها، إذ كان واثقاً من إنجاز الله تعالى وعده له ومطمئناً لذلك. ومن ثم رد طلب المشركين ولم يلق لهم بالا، بل أحاط هؤلاء الفقراء بحبه واحتضنهم برعايته.

---

(١) **الترمذي**، المناقب، ٣٣

الفصل الثاني:

القائد والعنصر الإنساني

لم يهمل الرسول ﷺ العنصر الإنساني طوال حياته السنية، حتى أنه عندما كان يرسل بعضهم إلى جبهة القتال كان يحاول في الوقت ذاته المحافظة على المستوى الرفيع لبعض الأمور الثقافية والعلمية للإنسان. وما كان يمكن أن يكون إلا هذا. ذلك لأن القرآن الكريم كان يخاطبه قائلاً: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ من كُلِّ فِرْقَة منْهُمْ طَآئِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢).

أجل، فعندما يجاهد المؤمنون يجب أن تبقى طائفة منهم في الوراء لكي تتفقه في الدين ولكي تقوم بنقل تعاليم الدين إليهم، فحتى عندما يكون الجهاد فرض عين يجب أن تبقى أبواب بيوت الثقافة مفتوحة على مصاريعها، ولو سدت جميع أبواب معاهد العلم والثقافة عندما يحيط الأعداء بالبلاد من كل جانب فإنه حتى لو تم إحراز النصر من الناحية المادية فإن البلاد تكون قد خسرت الشيء الكثير باسم العلم والثقافة. لذا، فإن الإسلام يوصي بأن تبقى طائفة من الناس ولا تذهب إلى جبهات القتال حتى في مثل هذه الظروف غير الطبيعية لكي يتفرغوا لمسائل العلم والثقافة. فلم يهمل رسول الله ﷺ مواصلة التعبئة العلمية والثقافية حتى في أصعب الظروف، إذ كرس الذين لم يذهبوا إلى جبهات القتال أنفسهم للمدارسة والعلم، وكما قلنا سابقاً فإنه بينما كان عدد

الذين يقرأون ويكتبون في بداية الدعوة الإسلامية يعدون على أصابع اليـد لم يبق هناك فرد واحد لا يعرف القراءة والكتابة بعد عشرين عاماً من بدء الدعوة الإسلامية وكان هذا نتيجة لجهود الرسول ﷺ.

أجل، إنه لم يهمل في أي وقت من الأوقات الاهتمام بالعنصر الإنساني، وعرف كيف يربي الفرد من جميع جوانبه ويربي الأمة تربية صحيحة وسليمة، علم وأمر بالتعليم، وقلب الأشياء النظرية إلى أمور فعلية وقام بنفسه بوظيفة معلم فربى التلاميذ، فأنشأ مجتمع علم وإيمان في دنيا خامدة وبين جماعات هامدة.

وبعد المنشئ والمعماري الأول يستطيع المجتمع أن يستخرج الإداريين من بين أفراده، غير أنَّ الفضل في كل ذلك يعود لِمَنْ أنشأ وعَمَّرَ أول مرة.

أجل، إن المجتمع المنفتح على العلم وعلى الفكر وعلى التقنية يدار من قبل أشخاص يمثلون هذا المجتمع ويكونون دائماً من زبدة هذا المجتمع. فإن وجد العمل والثقافة والتقنية فإن الزبدة تتشكل على الدوام في هذا المجتمع. ويشرح رسول الله ﷺ هذا الأمر بكلمات وجيزة وجامعة فيقول: «كما تكونوا يُـوَلَّى عليكم.»[1]

هناك آيات كريمة عديدة تهتم بالعنصر الإنساني وتشوق على هذا الاهتمام وتدعو إليه. وبمطالعة هذه الآيات بأجمعها يتوضح مدى الاهتمام الذي يبديه الدين الإسلامي للإنسان. ولكوننا لا نريد تدقيق هذا الموضوع والدخول إلى

(١) «**كنز العمال**» للهندي ٨٩/٦

تفاصيله فإننا نكتفي هنا بالإشارة إلى آية أو آيتين لإعطاء فكرة مبسطة عنه.

﴿وَلْتَكُن منكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤) و ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

هذه الآيات وأشباهها مهمة جداً من زاوية اهتمام الإسلام بالإنسان وبالعلم.

لقد تناول الإسلام قلب الإنسان وروحه ومشاعره وعواطفه وتفكيره بشكل متوازن ووجهها نحو الغاية من خلقه... لا إهمال ولا عدم توازن. بل التوجه بهذه المشاعر والأحاسيس بأجمعها لمشاهدة ما وراء أستار الوجود، و لم يهمل الرسول ﷺ هذا الأمر طوال حياته السنية، وهذا شيء مهم بالنسبة للمرشد.

فكم من مرشدين لم يستطيعوا استغلال العناصر البشرية والإمكانيات المتاحة لهم فواجهوا الفشل... أي لم يستطيعوا صيانة أنفسهم من الوقوع في الأخطاء وهم على أبواب النصر. فالذين ملأوا الشوارع بمظاهرات الشباب إنما خاطبوا المشاعر واهتموا بها. ولكن مخاطبة المشاعر وحدها لا تنفع في الاعمال التي تتطلب الاستمرارية والدوام، علماً بأن رسول الله ﷺ لم يفكر أبداً في جمع الناس خلفه بإثارة مشاعرهم وعواطفهم، ذلك لأن هؤلاء الذين يتجمعون بمثل هذه العاطفة يمكن أن ينفضوا عنه نتيجة عاطفة أخرى فيبقى وحيدا، بينما لم يتخل أصحاب رسول الله ﷺ عنه حتى في أحلك الساعات وأصعبها وأثقلها...

دع عنك التخلي عنه، بل كانوا يفدونه بأرواحهم ويعدون الموت في سبيله وفي سبيل دعوته أمنية حياتهم.

ولنرجع إلى الصدد: إذا كان بلد ما بلداً معموراً فهو معمور بإنسانه، وهذا هو ما فعله الرسول ﷺ، فالأفراد الذين بعثهم إلى مختلف أقطار الأرض أبْـــدَوْا دراية وحنكة في إدارة الدولة والشعوب و لم يقصروا في فـــتح المـــدارس ودور العلم، وهذا يظهر لنا أن الرسول ﷺ نجح في تربية أصحابه وتنشئتهم وإعـــداد تابعيه... والأهم من ذلك أنه أولى الإنسان الذي هو اللبنة الأولى في أي عمل إصلاحي عنايته حتى يُعِدَّهُ لأصعب المهام.

الفصل الثالث:

القائد واستخدام الكفاءات في المكان المناسب

لقد استخدم الرسول ﷺ أصحابه ومن اتبعه بشكل صحيح، فوضع كــلا منهم في مكانه المناسب، وعندما كان ينتدب أحداً لمهمة ما، فمن المؤكد أنــه كان أنسب الأشخاص الموجودين لتلك المهمة وإجراءاته شاهدة على هذا، إلى درجة أنه لو لم يكن هناك دليل آخر على نبوته لكان اكتشافه لقابليات الأفراد واستعمال كل فرد منهم في موضعه الصحيح وفي مكانه المناسب وإعطاء كل واحد منهم الوظيفة المناسبة والملائمة له للاستفادة القصوى من قابلياته وطاقاته وعدم وقوعه في أي خطأ في هــذا الموضــوع، أي اســتمراره في اســتخدام الأشخاص في الوظائف التي وكلها إليهم حتى أواخر أعمارهم -هذا باســتثناء الحالات التي استخدم بعضهم لمدة مؤقتة تألفاً لقلــوبهم ومراعــاة لحــالاتهم النفسية- دليلاً قائماً بذاته على هذه النبوة بحيث لا نملك إلا أن نهتف: ''محمد رسول الله.''

لقد حفلت المرحلة الأولى للإسلام بالآلام وبالمحن وبأيام شديدة قاسية، ففي ظرف (٥-٦) سنوات بلغ عدد المؤمنين أربعين شخصاً فقط... وما كــان في الإمكان آنذاك أن تحدث شخصاً حول الإسلام دون أن تخاطر بحياتك: حتى أن

شخصاً في مكانة أبي بكر الصديق ﷺ ضرب مرات عديدة وأغمي عليه من شدة الضرب[١] وعمر بن الخطاب ﷺ... هذا الرجل القوي الجبار الذي كان يصارع الجمل، ضرب مرات عديدة وديس عليه.[٢] فإذا كان الظلم والقهر قد وصلا إلى هذا المستوى مع هؤلاء الأشخاص المعروفين. فتصوروا أنتم حال الآخرين من الناس.

في هذا الجو القاتم والمكفهر تعامل الرسول ﷺ مع كل واحد معاملة خاصة، فلم يأمر مثلا أبا بكر وعمر ﷺ بالهجرة إلى الحبشة، و لم يأمر كذلك علياً وزبيراً لصغر سنهما، ذلك لأن أمثال هؤلاء كانوا من الذين يستطيعون تحمل ما يجري في مكة.

كان عثمان بن عفان ﷺ ذا بنية نحيفة، وكان من الصعب عليه أن يتحمل ذلك الجو القاسي الذي كان يعصف في مكة، ثم كان هو أفضل من يستطيع حماية المسلمين في الحبشة، لذا كلفه الرسول ﷺ بهذه المهمة وأرسله إلى الحبشة.[٣]

إليكم نماذج من هذا الأمر:

أ- أبو ذر الغفاري ﷺ

فمثلاً جاء أبو ذر الغفاري ﷺ إلى مكة ثم أعلن إسلامه، ولكن وجود مثل هذا الشخص ذي المشاعر الفوارة والعواطف المتأججة في مكة آنذاك لم يكن

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣/٤٠-٤١

(٢) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣/١٠٢؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١/٢٣٤

(٣) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١/٢٤٤؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣/٨٤

مناسباً بل ضاراً له ولغيره، لذا أمره الرسول ﷺ بالرجوع إلى قبيلته والقيام بمهمة الإرشاد هناك وقال له: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري.» فرجع إلى قومه و لم يأت إلى الرسول ﷺ إلا بعد فتح خيبر.[١]

كان أبو ذر عابداً زاهدا،[٢] ومن أنصار العدالة الاجتماعية إلى درجة قد تحير علماء الاجتماع الحاليين، وهو في نظر البعض منهم أول من طرح الفكر الاشتراكي. لندع أفكارهم هذه لهم ولنرجع ونتساءل. ما الفقر؟ وكيف يمكن محاربته؟ كان أبو ذر رضي الله عنه أول بطل طرح هذا الأمر، وهو أحد الثلاثة الذين تشتاق لهم الجنة.[٣] ومع ذلك فإنه عندما جاءه يطلب الإمارة رده. ففي الحديث الوارد في صحيح مسلم عن أبي ذر: قال: قلت: يا رسول الله! ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي ثم قال: «يا أبا ذر! إنك ضعيف. وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدّى الذي عليه فيها.»[٤]

عندما قال النبي ﷺ هذا لأبي ذر رضي الله عنه، لم يقل القول نفسه لأبي بكر أو لعمر رضي الله عنهما، على العكس من ذلك فقد أشار إلى إمارتهما عندما أمسك بيده اليمنى يد أبي بكر رضي الله عنه وبيده اليسرى يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال: «إن لي وزيرين من

---

(١) **البخاري**، مناقب الأنصار، ٣٣؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ١٣٢-١٣٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣/٤٥-٤٧

(٢) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٩/٣٣٠؛ «**الإصابة**» لابن حجر ٤/٦٢

(٣) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٩/٣٣٠

(٤) **مسلم**، الإمارة، ١٦، ١٧؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٥/١٧٣

أهل السماء ووزيرين من أهل الأرض. فوزيرايَ من أهـل السـماء جبريـل وميكائيل ووزيـرايَ من أهـل الأرض أبو بكر وعمر.»[(١)]

ومن ناحية أخرى فقد اطلع من وراء ستار الغيب إلى خلافـة الـصحابة الأربعة الراشدين وأعطى بعض الإشارات والإيماءات حولها. وعندما جاء ذكر عثمان بن عفان ﷺ قال ﷺ: «ائذن له وبشره بالجنة مع بلـوى تـصيبه.»[(٢)] وفعلاً أحاطت البلايا بأواخر خلافة عثمان ﷺ.

أجل، كان يعرف صحابته معرفة جيدة... بل كان يعرفهم أكثر مما يعرفون هم أنفسهم، فلم يخطئ أبداً عند إسناد المهمات إلى أي فرد منهم، فقد يعتقد أبو ذر ﷺ أنه أهل للإمارة، ولكن رسول الله ﷺ كان يعرف أبا ذر أكثر مما يعرف أبو ذر نفسه، لذا قال له: «يا أبا ذر! إنك ضعيف. وإنها أمانة وإنها يوم القيامـة خزي وندامة...» قال له هذا و لم يؤمره. والآن لنعط مثالاً حول هذا الأمر.

ب- عمرو بن عَبَسَة ﷺ

جاء في صحيح مسلم ومسند ابن حنبل ﷺ عن عمرو بن عَبَسَة أنه جـاء إلى النبي ﷺ بمكة فقال له بغلظة: ما أنت؟ قال: «أنا نبي.» فقلت: وما نـبي؟ قال: «أرسلني الله.» قلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثـان وأن يوحّد الله لا يُشـرك بـه شـيء» قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: «حـرٌّ وعبد» قال ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن بـه.

---

(١) «**كنـز العمال**» للهندي ٥٦٣/١١، ١٥/١٣

(٢) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ٥-٧؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٢٩

فقلت: إني متبعك.

حدث هذا في العهد المكي وفي وقت كان الرسول ﷺ في حاجة ماسة إلى أي رجل فرد يقف بجانبه ليزداد قوة، ولكن الرسول ﷺ كان يعلم من يستعمل وأين يستعمل ذلك الشخص، وما المهمة التي يعهدها إليه، لذا فقد قال لعمرو بن عَبَسَة ما قاله لأبي ذر الغفاري... قال له أن يرجع إلى قومه لأنه لن يستطيع المكوث في مكة ومقاومة الظلم والإرهاب فيها: قال: «إنك لا تستطيع ذلك يومَك هذا. ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني»

وهكذا كان... إذ رجع عمرو إلى قومه... ومرت السنوات وبدأت الانتصارات تتوالى على الرسول ﷺ وعلى المسلمين، وبلغت أنباؤها عمراً فتوجه إلى المدينة المنورة وقصد المسجد النبوي حيث كان النبي هناك مع أصحابه... لنتابع الرواية: فقدمتُ المدينة فدخلت عليه فقلت: يا رسول الله أتعرفني؟ قال: «نعم، ألست أنت الذي أتيتني بمكة؟.»[1]

واندهش عمرو من ذاكرة النبي ﷺ... لأن تذكّر عمرو للحادثة في مكة ليس مهماً، لأنه لا يمكن أن ينسى هذه الحادثة التي تعد أهم حادثة في حياته ولكن الوضع يختلف بالنسبة لرسول الله ﷺ، فقد مرت عليه حوادث مشابهة عديدة ضمن هذه السنوات العديدة الحافلة بالآلام وبالمشقات، فكان من الغريب أن يتذكر وجهاً رآه لمدة خمس دقائق فقط بعد كل هذه السنوات

(١) **مسلم**، صلاة المسافرين، ٢٩٤؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١١٢/٤

الثقيلة التي تنسي الشخص أقرب أصدقائه. ولكن الرسول ﷺ تذكره حالما رآه لأنه لم يكن ينسى أي إنسان ارتبط به. ولو لم يأت إليه عمرو بن عَبَسَة وأبو ذر ﵄ بعد فتح مكة لأرسل في طلبهما، لأن النصر إنما تم بعد فتح مكة.

أجل، لقد كان يعرف أتباعه أكثر مما نعرف نحن أولادنا. ذلك لأنه كان لكل إنسان مكانه الخاص في قلبه، لأن مثل هذه المعرفة كانت ضرورية له لكي يستطيع أن يوكل المهمات إلى أصحابها الذين يستطيعون إنجازها وحمل عبئها.

هل هناك في التاريخ قائد آخر كان على هذا القدر من العلم بكادره وأتباعه..؟ لا أظن ذلك... ذلك لأن رسول الله ﷺ لم يكن قائداً وزعيماً فقط بل نبيا أيضا، وكل كلامنا يدور حول محور نبوته هذه.

ج- **جُليبيب** ﵁

كنا قد تكلمنا سابقاً عن جُليبيب... وكان ككل شاب آخر في مثل هذا العمر يتعرض لبعض المشاكل النفسية تجاه الجنس الآخر، وقد فهم الرسول ﷺ مشكلته هذه ودعا له. ولكن رسول الله ﷺ استطاع ببيانه الساحر أن يقنعه بترك هذا ثم دعا له.[1]

أصبح جليبيب من أعف الشباب في المدينة. عن أبي بَرْزَة الأسلمي أن جُليبيبا كان امرأ يدخل على النساء يمر بهن ويلاعبهن فقلت لامرأتي: لا يدخلن عليكم جُليبيب فإنه إن دخل عليكم لأفعلن ولأفعلن. قال: وكانت الأنصار إذا

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ٥/٢٥٦-٢٥٧

كان لأحدهم أَيــِّمٌ لم يزوجها حتى يُعلم هل للنبي ﷺ فيها حاجة أم لا. فقال رسول الله ﷺ لرجل من الأنصار: «زوجني ابنتك» فقال: نعم وكرامــة يــا رسول الله، ونعم عيني. فقال: «إني لست أريدها لنفسي» قال: فلمن يا رسول الله؟ قال: «لجُليبيب» قال فقال: يا رسول الله أشاور أمها. فأتى أمها فقــال: رسول الله ﷺ يخطب ابنتك. فقالت: نعم ونعمة عيني. فقال: إنه ليس يخطبــها لنفسه إنما يخطبها لجُليبيب. فقالت: أجليبيب إنِيه أجليبيب إنِيه أجليبيب إنِيه؟ لا لعمر الله لا تزوجه. فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله ﷺ ليخبره بما قالت أمها قالت الجارية: من خطبني إليكم؟ فأخبرها أمها فقالت: أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟ ادفعوني فإنه لم يضيّعني. فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فأخبره قال: شأنك بها فزوجها جُليبيبا. قال: فخرج رسول الله ﷺ في غزوة له قال: فلمــا أفاء الله عليه قال لأصحابه: «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: نفقد فلانا ونفقد فلانا. قال: «انظروا هل تفقدون من أحد؟» قالوا: لا. قال: «لكــني أفقــد جُليبيباً» قال: «فاطلبوه في القتلى» قال: فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قــد قتلهم ثم قتلوه. فقالوا: يا رسول الله ها هو ذا إلى جنب سبعة قــد قتلــهم ثم قتلوه. فأتاه النبي ﷺ فقام عليه فقال: «قتل سبعة، ثم قتلوه. هذا مني وأنا منه، هذا مني وأنا منه» مرتين أو ثلاثا ثم وضعه رسول الله على ساعديه وحفر له ما له سرير إلا ساعدا رسول الله ﷺ، ثم وضعه في قبره.(١)

أجل، لم ينسه... إذ لم يكن ينسى أيّا من أتباعه وأصدقائه، لأنه كان رمز الوفاء.

---

(١) **مسلم**، فضائل الصحابة، ١٣١؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢/١٣٦، ٤/٤٢٢، ٤٢٥

د- **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه

كانت معركة خيبر قائمة والحصار مستمراً، ولكن الأيام مضت دون إحراز أي نتيجة. وفي أحد الأيام قال الرسول ﷺ: «لأُعطين هذه الراية رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» فبات الناس يَدُوكُونَ[(١)] ليلتهم أيهم يُعطاها فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجون أن يعطاها فقال: «أين عليّ بن أبي طالب؟» فقالوا: هو يا رسول الله! يشتكي عينيه. قال: فأرسلوا إليه فأُتي به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية.[(٢)] وفعلاً فتحت خيبر على يد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وتحققت نبوءة الرسول ﷺ فما من أحد كلفه بمهمته إلا وأنجزها... فمثلاً قال عن خالد بن الوليد رضي الله عنه إنه سيف الله[(٣)] وفعلاً أصبح خالد سيفاً من سيوف الله، فما من معركة دخلها إلا وانتصر فيها، لذا قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: "لم تلد الأمهات رجلا مثل خالد."[(٤)]

وأودع الرسول ﷺ إلى القَعْقَاع بن عمرو التميمي أيضاً وظائف مهمة أنجز جميعها بنجاح حتى قال أبو بكر رضي الله عنه في حقه: "لا يُهزم جيش فيه مثله."[(٥)]

وعَيَّن أسامة قائداً على جيش وهو في السابعة عشر أو الثامنة عشر من

---

(١) **يَدُوكُونَ**: يخوضون ويتحدثون في ذلك. (المترجم)

(٢) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ٩؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٣٤

(٣) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ٢٥

(٤) «**رجال حول الرسول**» لخالد محمد خالد ص٢٩٣

(٥) «**الإصابة**» لابن حجر ٣/٢٣٩-٢٤٠

عمره، وأرسله إلى مؤتة، وقد أظهر أسامة طوال حياته أنه كان أهلاً لمثل هـذا الموقع.[1]

هـ- **الزوجات الطاهرات** رضي الله عنهن

كان اختياره لزوجاته من بين المئات من النساء اختياراً موفقـاً يـستحق الوقوف عنده. إذ كان عليه أن يختار زوجات يستطعن تحمل عبء مـسؤولية أمومتهن للمؤمنين، وكان مصيباً تماماً في اختياره. فقد بينت الأيام أنهـن مـن الذهب المصفى، فقد أصبحن مرشدات ومعلمات وخدمن الإسـلام خدمـة كبيرة، وقمن بوظيفة التبليغ والإرشاد للعديد من الرجال العظام الذين ازدحموا على أبوابهن. فكم من زاهد وعابد وعالم أمثال مسروق وطاووس بن كيـسان وعطاء بن أبي رباح أخذوا الدروس وتعلموا منهن وكانوا تلاميذ لهن ونهلوا من علمهن.

فالرسول ﷺ كان يختار المرأة التي ستكون في المستقبل مرشدة، ويهيئ لهـا إمكانية التعلم في بيته وإمكانية التعليم بحيث تصبح من ورثة دعـوة النبـوة في المستقبل، ولا توجد ضمن زوجاته الطاهرات امرأة واحدة لم تخدم هذا الهدف، فكما خدمت السيدة خديجة رضي الله عنها الإسلام في بدء الدعوة ووضـعت كل ثروتها في هذا السبيل، خدمت الزوجات الأخريات هدف نـشر المعرفـة الإسلامية بنفس التصميم، وهكذا نعلم أنه ما اختار زوجاته بدءاً بخديجة رضي

---

(١) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ١٧؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٦٣؛ «**الإصابة**» لابن حجـر ٣١/١

الله عنها وانتهاء بزوجاته الأخيرات إلا بفراسة النبوة، صحيح أنه تزوج خديجة رضي الله عنها قبل نبوته إلا أنه كان في ظل بشائر تلك النبوة وأماراتهـــا، ولا يمكن تفسير اختياراته الصائبة كل هذا الصواب تفسيراً آخر.

الفصل الرابع:

صاحب الفراسة المتنورة بالوحي

إن حصول أي قائد على ثقة جماعته وأتباعه مرتبط بحصوله على قبولهم له ورضاهم عنه من كل جانب من جوانبه ونظرهم إليه كشخص موثوق يمكن الاعتماد عليه. وهذا متعلق بقدرته على حل جميع مشاكل هؤلاء الأتباع سواء أكانت فردية أم عائلية، اجتماعية كانت أو اقتصادية أو سياسية. وكلما كان هذا القائد موفقاً في حله لهذه المشاكل كلما زاد قبوله من قبل أتباعه وزادت محبتهم وتقديرهم وتوقيرهم له، وأصبح لهم رمزاً أبدياً، وكان رسولنا محمد ﷺ قائداً للإنسانية لا شبيه له في حل مشاكلها ومعضلاتها.

هناك بديل لحل المشكلات، وهو اللجوء إلى الضغوط وإلى استخدام القوة وسن العقوبات والطرد من البلاد وحرمان الشخص من حقوق المواطنة وفتح أبواب السجن على مصاريعها وتطبيق صنوف التعذيب وبث العيون والجواسيس بين الناس وإشاعة جو من الإرهاب والفزع بين المواطنين... لن تستطيع حل أي مشكلة بهذا الأسلوب... لا تعجز فقط عن حل المشكلات بل ستتسبب في خلق تعقيدات عديدة وهزات عنيفة في المجتمع، لذا فهذا ليس أسلوبا للحل وإن كان البعض يتصوره طريقا ناجحا في حل المشكلات، إلا أنه في الحقيقة طريقا لإثارة المشكلات ودخول إلى دائرة مفرغة، وبينما تفرح لاعتقادك أنك حللت كل شيء، إذا بك تفاجأ بتعقيدات لم تخطر لك على

بال. وعندما تتشكل مثل هذه الدائرة المفرغة فإن كل حركة تتحركها تغرقك في الوحل أكثر فأكثر حتى تكسر هذه الدائرة.

بينما قام رسول الله ﷺ بحل جميع المشكلات والمعضلات بكل سهولة ويسر دون أن يدخل داخل هذه الدائرة المفرغة ودون أن يستعمل الضغوط والإرهاب والقوة، بل أخذ الإرادة الإنسانية الحرة بنظر الاعتبار واحترمها. ولو أخذت هذه الناحية فقط بنظر الاعتبار دون النظر إلى حالاته الخارقة للعادة ودون النظر إلى معجزاته العديدة لآمنت بأنه رسول من عند الله... أجل، إنه رسول الله لا غير... وإلا كيف يمكنه حل كل هذه المشكلات..؟ كيف كان يمكنه هذا مع أنه نشأ في مجتمع كان يثير المشكلات لأتفه الأسباب، وتنشأ بينهم الخصومات الدموية لأحقر الأمور وتشتعل الفتن لأهون الأشياء... مجتمع غارق في البداوة والضلالة والطغيان والظلام، لقد وضع الله تعالى عبء إرشاد مثل هذا المجتمع على كاهل النبي ﷺ. يقول القرآن الكريم:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ (الحشر: ٢١). فهذه الآية تشرح كيف أن هذه المهمة التي أعطيت للرسول ﷺ لو أعطيت للجبال لتصدعت من جرائها... أجل، لقد كانت المهمة شاقة وصعبة إلى هذه الدرجة، ولاسيما في ذلك المجتمع البدوي والبدائي الغارق في الضلالة، فتناول الرسول ﷺ مشاكل هذا المجتمع مشكلة مشكلة ومعضلة معضلة وبدأ بفك عقدها وحل مصاعبها، فأوصل هذا المجتمع إلى شاطئ الاطمئنان وإلى ساحل السلامة.

لقد صنع من هذا المجتمع مجتمع أمن وطمأنينة إلى درجة أنك لن تستطيع رؤية مثل ذلك المجتمع إلا في الكتب التي تصف المدن الفاضلة ككتاب أفلاطون (Platon) "الجمهورية"، وكتاب "توماس مور (Thomas More)" "يوتوبيا" وكتاب كامبانللا (Campanella) "مدينة الشمس"... لقد كتبت كل هذه الكتب بأمل البحث أو بدافع الشوق إلى مجتمع مثل المجتمع الذي أنشأه الرسول ﷺ... لندع هؤلاء يتجولون في أودية الخيال ولننظر إلى الرسول ﷺ الذي أنشأ قبل قرون مجتمعاً أزال منه الجوانب السلبية الموجودة حتى في هذه المجتمعات المثالية والخيالية، وجعله مجتمعاً مثالياً يبرق في السماء بريق النجوم ليهتدي به من يأتي من بعده... فمن اهتدى بهذا النجم اهتدى إلى الحق وملأ الاطمئنان قلبه... ونحن نرى هذه الحقيقة في أيامنا الحالية بكل وضوح. ونفهم أن مجتمع الصحابة كان مجتمعاً حقيقياً وواقعيا، ونطمح في أيامنا القادمة السير نحو ذلك المجتمع النوراني.

لو لم يقم الرسول ﷺ بحل جميع مشاكل ومعضلات إنسان ذلك العصر أكان من الممكن ظهور الصحابة الذين هم فخر الإنسانية..؟ كلا بالطبع. ولكن هل كان الرسول ﷺ يحل كل هذه المشاكل بعقله الخاص فقط..؟ كلا بالطبع. ونضيف فنقول إن الله تعالى وهب له فطنة نبوية، أي فطنة ينورها الوحي بحيث استطاع بهذه الفطنة أن يحل جميع المشاكل بكل يسر، وهذا من أدلة نبوته وهي منطلق بحثنا هذا. والآن لنتعرض لبعض الأمثلة في هذا الخصوص:

أ- التحكيم حول الحجر الأسود

كان الناس في ذلك العهد يراجعونه ليحل لهم مشاكلهم المتعددة. وعندما بدئ بترميم الكعبة -الذي شارك فيه شخصياً- كان وضع الحجر الأسود في مكانه مشكلة قابلة للانفجار بين القبائل العربية قد تؤدي إلى إراقة الدماء. وكان من الواضح أن المشكلة إن لم يتم حلها في ظرف يوم أو يومين فإن الحرب آتية دون ريب. وكما قلنا سابقاً إن الرسول ﷺ إن لم يحل هذه المشكلة بوضع الحجر الأسود في مكانه بطريقة يرضى عنها الجميع لنشب نزاع دموي. وكما هو معلوم فقد وضع الحجر الأسود في ثوب ودعا زعماء القبائل إلى الإمساك من أطرافه وحمل الحجر الأسود جماعياً. وعندما اقتربوا من مكان الحجر الأسود رفعه بيديه ووضعه في مكانه.

هذه الحادثة -التي لا ندخل في تفاصيلها- تبين لنا كيف أن الرسول ﷺ كان حتى قبل نبوته صاحب فطنة كبيرة.

عندما قام بهذا التحكيم كان عمره يتراوح بين العشرين وخمس وعشرين، أي قبل أن يتشرف بالنبوة ويتأيد بها، وقبل اكتسابه أعماقاً أخرى وقبل انفتاح أبواب اللانهاية أمامه وقبل بدء تلقيه الدروس من ربه. ولكن حتى قبل أن يأتيه الوحي، كان قد احتلّ -بالالهامات التي كانت ترد إلى قلبه- مكانة في القلوب إلى درجة أن كفار قريش ما أن رأوه داخلاً من باب المسجد حتى هتفوا فرحين: "هذا الأمين.. رضينا.. هذا محمد"[1] جاء وحلّ تلك المشكلة.

---

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ٣/٤٢٥؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١/٢٠٩

أجل، حل تلك المشكلة دون أن يفكر طويلاً أو ينتظر أو يأخذ رأى فلان أو علان أو يبحث في الأمر مليا... حلها ببساطة وكمن يسل شعرة من عجـــين... كان ذلك أمراً بسيطاً بالنسبة إليه، و لم يعترض أحد عليه، وما كان بإمكانـــه أن يعترض، ذلك لأنهم عينوه حَكَماً لهم، وقام هو بوظيفة الحكم خير قيـــام، دون خطأ أو تعثر أو تردد، وأرضى الجميع.

لم يخط في حياته خطوة إلى الوراء أبداً، لأنه كان صاحب فطنة كبيرة يفهم ما يُلقى إليه من ربه حق الفهم... كانت فطنته هذه مثل برعم زهرة تفتحت، وكلما تفتحت تلونت وابتسمت في الوجه العابس للإنسان... هذا الإنـــسان المليئة حياته بالمشاكل وبالرغبات غير المشبعة.

وقد تتصور أن أبعاد عظمته قد انتهت، أو أنك أحطتَ بها، ولكن هيهات... فعلى قول الشاعر المتصوف "يونس أمره" إنه برعم في داخله براعم أخرى...

أجل، لقد راجعه الآخرون طوال حياته السنية، و لم يَرُدّ هو أحداً راجعـــه حزيناً أو مهموما، بل قام بحل مشاكله. فمنذ البداية قام بحل مـــشاكل قومـــه الذين كانوا مهيئين لإثارة المشاكل والفتن على الـــدوام... كـــانوا يـــثيرون المشاكل، وكان يقوم بحل تلك المشاكل واحدة تلو الأخرى.

كانت الهجرة مشكلة قائمة بحد ذاتها... مشاكل الحرب والنزاع والسلام، مشاكل المنافع والمصالح المادية مشاكل الغنيمة... ولو لم يستطع الخروج مـــن بين هذه المشاكل، لكان من المحتم دخول قومه المحبين للجدل والنزاع والخصام في نزاعات دموية فيما بينهم.

ب- تقسيم غنائم حُنين

وأشرنا إلى هذه الحادثة أيضاً وإلى حكمته البالغة وبُعد نظره وفراسته المرهفة في منع وقوع فتنة بين المسلمين وأوردنا خطابه الرائع الذي شرح لهم فيه كيف أنه تألف بهذه الغنائم قلوب زعماء قريش وأنه وكلهم إلى إسلامهم، وأن هذه الغنائم ليست إلا لعاعة من لعاعات الدنيا الفانية وأنهم الرابحون حقاً لأنهم سيرجعون برسول الله ﷺ معهم، ثم دعا لهم ولأولادهم ولأحفادهم. ففتح ببيانه الرائع قلوبهم حتى بكوا واخضلت لحاهم بالدموع.[1] وهذا مثال من أمثلة فراسته وفطنته وسرعة بديهته. ولا نفصل هنا هذا الموضوع فقد سبق وأن شرحناه ببعض الإسهاب.

ج- مشكلة الهجرة

تُعد الهجرة مشكلة على الدوام، وهي تقع في أيامنا الحالية أيضاً،[2] ونرى كيف أن دولتنا بدأت تقاسي الأمرين من جراء هذه الهجرة، وقد أظهرتُ قلقي في عدة خطب، وقلت إن هذه نتيجة مؤامرات تحاك في الخارج وتوضع كتمثيلية على مسرح تركيا... وغداً سيفتحون باباً للنفاق في الشرق وباباً للشقاق في الغرب، وفتنة في الشمال وأخرى في الجنوب... يستطيعون فتح

(١) **البخاري**، المغازي، ٥٦؛ **مسلم**، الزكاة، ١٣٢-١٣٥؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١٤١/٤-١٤٢

(٢) فقد سيق مثلا (٣٠٠) ألف أخ من إخواننا في الدين والقومية إلى الهجرة من بلغاريا إلى تركيا في سنة ١٩٨٩ ووقعت في أثناء هذه الهجرة مآسٍ وفواجع عديدة.

هذه الأبواب، ذلك لأن الكفار والظالمين ومنافقي آسيا متهيئون على الدوام لفتح أبواب الغوائل أمامنا. وكانوا قد انتهزوا فرصة ضعفنا في السابق فأزالوا الدولة العثمانية التي كانت عنصر توازن دولي آنذاك، ولو لم تلتجئ الأمة في النهاية إلى معاني روحها وإلى جذور عقيدتها في معركة "شنق قلعة" وفي "حروب الاستقلال" لما كانت هذه الأمة قائمة وموجودة اليوم... بل لتضرر العالم الإسلامي كله من هذا الأمر، ولكن فدائيي "شنق قلعة" و"حرب الاستقلال" استطاعوا تسخير القوى الديناميكية الموجودة في روح هذه الأمة والتي تنبع من عقيدتها ومعنوياتها واستعانوا بالله تعالى فأنقذوا هذه الأمة من أن يكون مصيرها مثل مصير بلغاريا أو مصير تُرْكِسْتان أو أوزبكستان أو مُنغوليا (Mongolia)... وندعوا الله تعالى أن يمكن هذه البلدان أيضاً من كسر سلسلة العبودية التي تطوق أعناقها[1] وأن يمكنهم من محاسبة خصومهم ذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿وَتِلكَ ٱلأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَينَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠). فإذا كانت الأيام متوجهة نحو أعدائهم اليوم، فقد تدبر عنهم غدا، وقد تغشى الابتسامة والانشراح في المستقبل هذه البلدان المظلومة البائسة.

أجل، إن الهجرة مشكلة قائمة بذاتها وما ذكرناه باختصار عن الهجرة الحالية التي وضعت أمة تعدادها ٥٥ مليون نسمة وحكومتها في وضع حرج وصعب مثال واضح. غير أن الهجرة التي حدثت آنذاك كان عدد أفرادها يكاد يقترب من عدد أهل المدينة ولكن النبي ﷺ استطاع بفطنته أن يجنب الذين هاجروا سواء إلى الحبشة أو إلى المدينة من الضوائق المادية. وإضافة إلى تخطي المتاعب الدنيوية فقد تحققت

---

(١) قال المؤلف هذا قبل انهيار الاتحاد السوفيتي. (المترجم)

نتائج جيدة. والحقيقة أنه لا توجد هجرة في تاريخ العالم تحققت بهذا النجاح الذي تم على يد رسول الله ﷺ فكيف حل الرسول ﷺ هذه المعضلة الكبيرة؟ لنشرح هذا بعض الشيء دون الدخول في تفاصيل كثيرة:

كانت يثرب مدينة صغيرة يعمل أهلها في الزراعة، لذا فقد كانت سوقها في يد اليهود، صحيح أن المهاجرين من أهل مكة كانوا يجيدون التجارة إلا أنه لم يكن عندهم الرأسمال اللازم للتجارة؛ ومن ثم فما كان يمكنهم منافسة اليهود، فكيف كان بإمكانهم التعامل بالتجارة وقد تركوا كل أموالهم وأملاكهم في مكة؟ ثم إن أعداد المهاجرين كانت في تزايد مستمر، وكانت نفوس أهل المدينة في تصاعد سريع، فأين يستقر هؤلاء ومن أين يأكلون ولاسيما أن أهل المدينة فقراء.. كانت المشاكل تتراكم وتزداد وتنتظر كلها الحلول من الرسول ﷺ. كان الجميع يتطلعون إليه ويثقون بقدرته على حل هذه المشكلات جميعها. وفعلاً قام بحلها بضربة واحدة.

ما أن حل الرسول ﷺ في المدينة حتى آخى بين المهاجرين والأنصار، فقد نفخ في أرواحهم روح آصرة أخوة أقوى من أخوة النسب وأبعد منها مدى، إلى درجة أنهم توارثوا لفترة من الزمن...[1] كانت هذه الأخوة قوية إلى درجة أن الأنصار قسموا أموالهم قسمين وأعطوا قسماً منها إلى المهاجرين، حتى لقد بلغت هذه الأخوة مرتبة جرت فيها هذه الحادثة التي تذهل العقول:

---

(١) انظر إلى تفسير هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعضُهُم أَولَى بِبَعضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ٧٥) من «**تفسير القرآن العظيم**» لابن كثير ٤/٤٢-٤٣ و«**الدر المنثور**» للسيوطي ٤/١١٧-١١٨

جاء في رواية ينقلها البخاري أن المهاجرين عندما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، قال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها. قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أَقِط[(١)] وسَمْن، ثم تابع الغدو، ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة فقال النبي ﷺ: «مَهْيَمْ.»[(٢)] قال: تزوجت، قال: «كم سقتَ إليها؟» قال: نواة من ذهب.[(٣)]

أي أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أسرع بالزواج حالما توفرت له فرصة إعالة بيته، وهذا نوع من الاحترام لمشاعر الذين كان يتردد على بيوتهم، ومثال على رهافة الحس ورقة الروح والذوق.

لا شك أن أعظم المشكلات تذوب أمام هذه الأخوة؛ فهولاء المضحون الذين ارتبطوا ببعضهم بمثل هذه الرابطة القوية كانوا هم المرشحين لفتح العالم؛ وروح الأخوة التي كانت ترفرف في سماء المدينة سيأتي يوم تحلق فيه على أرجاء العالم كله.

١. نزاع بين الاستغناء والكرم

كان رسول الله ﷺ جالساً وحده فدخل عليه بعض زعماء المهاجرين بعد

---

(١) **أَقِط**: نوع من الجبن. (المترجم)

(٢) **مَهْيَمْ**: أي ما حالك؟ أو: ما شأنك؟ (المترجم)

(٣) **البخاري**، مناقب الأنصار، ٣

الاستئذان منه... لم يكن بينهم أحد من الأنصار، وكان هذا جالباً للانتباه، فلماذا أتى المهاجرون ولم يدعوا معهم أحداً من الأنصار؟

وبعد الاستئذان من الرسول ﷺ عرضوا عليه ما جاءوا من أجله فقالوا: "يا رسول الله! ما رأينا قوماً أبذل من كثير ولا أحسن مواساة من قليل من قوم نزلنا بين أظهرهم لقد كفونا المؤنة[١] وأشركونا في المهنأ[٢] حتى خفنا أن يذهبوا بالأجر كله." فقال النبي ﷺ: «لا ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم.»[٣]

كانت هذه هي الأخوة التي نفثها رسول الله ﷺ في قلوب أصحابه، وهذه هي الأخوة التي جعلت منهم جسداً واحداً. فالأنصار كانوا يحبون أن يبقى المهاجرون في بيوتهم، لأن فراق هؤلاء الإخوة كان شيئا مؤلما ألم الموت. فمع أنهم كانوا يلتقون بهم خمس مرات في اليوم في المسجد إلا أن فقدانهم لهم في غرف بيوتهم وفي وجبات الطعام التي تقاسموها معهم كان يحزّ في نفوسهم...

أجل، كان هناك استغناء من طرف وكرم ومروءة وتضحية في الطرف الآخر وكان كلا الطرفين يصرّ على موقفه. وأخيرا قد توصل الطرفان إلى اتفاق يقضي بأن يقوم المهاجرون بالعمل في مزارع الأنصار مقابل أجرة، وهكذا يستطيعون إعالة أنفسهم ويسكنون في مساكن مستقلة بهم ولا يبقون تحت منة أحد. وهكذا ساعد الأنصار المهاجرين باستخدامهم في العمل.

---

(١) أي تحملوا عنا مؤنة الخدمة في عمارة الدور والنخيل وغيرهما. (المترجم)

(٢) **المهنأ**: ما أتاك بغير تعب، والمعنى: أشركونا في ثمار نخلهم. (المترجم)

(٣) **الترمذي**، القيامة، ٤٤؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣/٢٠٠، ٢٠٤

وهكذا حل الرسول ﷺ مشكلة الهجرة على نطاق كبير بشعور الأخوة الذي أسسه في المدينة.[1]

وكانت المشكلة الثانية التي حلها هي التجارة، فقد رأى الرسول ﷺ أن اليهود هم المسيطرون على الحياة التجارية في المدينة، فأصدر أمره بتأسيس سوق للمسلمين في مكان آخر[2] لكي يتعاطى المسلمون عمليات البيع والشراء فيما بينهم في سوقهم الخاصة بهم من أجل أن يدخل المسلمون إلى عالم التجارة ويزدادوا قدرة وقوة ويؤسسوا محالهم التجارية الخاصة بهم ويقضوا على هيمنة غير المسلمين على السوق.

تأسست سوق جديدة وبدأ المسلمون يتعاطون البيع والشراء فيما بينهم فنرى كتاب المغازي ينقلون بأنه لم يمر وقت طويل حتى عجز اليهود عن مواصلة التجارة في المدينة المنورة. أجل، فلم يعد باستطاعة أحد منافسة المسلمين تجارياً في سوق المسلمين. وهذا ما كان الله تعالى يريده... فالله تعالى لا يريد من المسلمين أن يكونوا تابعين لأحد... إن الله لا يرضى لنا أن ننتظر الأوامر الصادرة من الآخرين ولا أن نلتجئ للآخرين ونرجو منهم أن يحلوا لنا مشاكلنا ونستعطفهم قائلين: نرجو ونتوسل منكم أن تحلوا لنا المشكلة الفلانية... هذا لا يرضاه لنا. يجب أن يكون المؤمن عزيز الجانب واقفاً على قدميه ينجز أعماله بيده ويحل بنفسه مشاكله، ويرى بعينه لا بعيون الآخرين ويعيش حسب معتقداته ويحافظ على أصالته... وهذا ما أسسه الرسول ﷺ في المدينة.

---

(١) **البخاري**، مناقب الأنصار، ٣

(٢) **ابن ماجه**، التجارات، ٤٠؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٧٦/٤

٢. أول دستور

ما أن وصل الرسول ﷺ المدينة حتى نشر بياناً.[(١)] ويطلق المتخصصون في القانون اسم "دستور رسول الله ﷺ " على هذا البيان الذي أعلنه بعد وصوله إلى المدينة بوقت قصير. ففي هذا البيان أو هذه المعاهدة نرى وجود أسس معظم ما جاء في بيان حقوق الإنسان وفي "فرمان التنظيمات" عندنا. فالحقوق التي تعهد بها للمسيحيين واليهود ساعدت على إرساء وحدة بين أهل المدينة وقربهم إليه وأبعدهم عن خصومه من البيزنطيين والساسانيين والقرشيين. لذا، عاش اليهود مدة تحت جناح المسلمين بكل اطمئنان وراحة وأمن. وقد عبر المنافق المعروف عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول عن قلقه أمام قريش فقال إنه لا يخشى قيام الرسول ﷺ بنشر دينه في المدينة. ولكن الخطر هو قيامه بجذب اليهود والنصارى إلى جانبه وضد المشركين.

وقد أصبحت هذه المعاهدة أو هذا البيان أو الدستور مدة طويلة سبباً في إرساء الصلح والأمن بين المسلمين واليهود حتى نقضها اليهود. وكان اليهود يراجعون الرسول ﷺ ويرضون به حكماً.

أجل، إن كتب الحديث تبين لنا أنهم راجعوه في قضايا السرقة والقصاص والزنا. ونعلم من هذا أن المسلمين وإن أوكلوا شؤون اليهود إليهم وجعلوهم أحراراً فيها إلا أن اليهود كانوا يرون في المسلم ولاسيما إن كان هذا رسول الله ﷺ عدالة أكثر وقابلية أكثر، لذا كانوا يراجعونه ويجعلونه حكماً في كل مسألة.

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١٤٧/٢

وهذا المصدر والنبع القدسي الذي سيصبح في المستقبل مرجع الإنسانية كلها كان قد أثبت مرجعيته بدأ من تلك الأيام.

وهكذا حل الرسول ﷺ مشكلة الهجرة بضربة واحدة ليتفرغ المسلمون للتوجه نحو العالم أجمع باطمئنان قلب.

د- مشكلة الحرب

للحرب وللهزائم مشاكلها... أجل، هناك مشاكل للحروب وللانقلابات وللانتصارات وللصلح... قمنا بعملية إنزال في قبرص سنة ١٩٧٤، ولكننا لا نزال نعاني من مشاكلها حتى الآن. إنني أقبّل جبين الجندي التركي الذي جابه الأعداء هناك وحاربهم، ولا أستهين أبداً ببطولته ولكنكم ترون أننا لم نستطع حل مشاكلها حتى الآن. علماً بأن جزيرة قبرص تم فتحها في عهد معاوية بسهولة وبسرعة ودون أن يخلفوا وراءهم أي مشكلة. ولكن الوضع أصبح يختلف الآن تماماً. وقد ذكرت مسألة قبرص كمثال فقط، وإلا فإن غايتي الأصلية هي الإشارة إلى صعوبة حل المشاكل ولاسيما مشاكل الحرب والصلح. فقد مرت سنوات طويلة على حرب البلقان، ولكن آثار مشاكلها لا تزال باقية حتى اليوم.

لقد شهد رسول الله ﷺ الحروب أيضاً... أولاً مع قومه وقبيلته ثم مع اليهود في المدينة وحواليها، ثم دخل حرباً مع الإمبراطورية البيزنطية، فقد كان محاطاً بالأعداء، وكان هؤلاء الأعداء مصدر مشاكل عديدة له. ولكنه كان يستطيع في كل مرة أن يستل نفسه من هذه المشاكل مثل استلال الشعرة من العجين.

١. التكتيك في معركة أُحد

لن أتناول هنا الانتصار في معركة بدر، ولا التعبئة في معركة الخندق ولا المفاخر التي سطرها الأبطال في مؤتة، ولا البطولات النادرة في معركة اليرموك بل سأتناول بإيجاز المسائل التي نتجت عن معركة أُحد التي تعد –في جانب منها– معركة كان للهزيمة فيها نصيب، والإشارة إلى تعامله مع هذه المسائل والقرارات الصائبة التي اتخذها في شأنها.

تُعد معركة أُحد أول معركة ظهرت فيها بوادر الهزيمة في صفوف المسلمين، وأنا أعوذ بالله من إسناد الهزيمة إلى أي مسلم حقيقي، ذلك لأنه كان لله تعالى تقدير خاص في ذلك أولا، إذ كان هناك أمام المسلمين أشخاص أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص من الدهاة العسكريين والسياسيين، وهؤلاء سيردون جيوشاً عديدة للأعداء على أعقابهم في المستقبل... صحيح أنهم كانوا آنذاك لسوء حظهم في صفوف المشركين، إلا أنهم كانوا صحابة المستقبل.

أجل، لقد غلب صحابة المستقبل صحابة اليوم، والمسألة الثانية هي أن الرماة –عين لهم الرسول ﷺ موضعاً خاصاً وأعطى لهم أوامر معينة– لم يلتزموا بتوجيهات الرسول ﷺ بل ظهر عند بعضهم حب جمع الغنائم، ولكنهم وجدوا عكس ما أملوا... والحقيقة أننا لا نرى في أنفسنا صلاحية وحق نقد هؤلاء الصحابة الأجلاء، فهم أولاً قد شرفوا برتبة المقربين، والمقربون لهم مستوى خاص من التعامل. ما أريد قوله هو أن هؤلاء الناس الشبيهين بالملائكة كانوا يعاملون معاملة خاصة، وإلا فإن حسناتنا تعد سيئات بالنسبة إليهم...

أجل، لو أننا فعلنا ما فعلوه آنذاك لاكتسبنا الثواب دون شك لكون باب الاجتهاد مفتوحاً على الثواب دائما. أما هم فقد كانوا من الرجال المخلصين المضحين الذين صافحوا يد الرسول ﷺ، والذين عاهدوا على نبذ الدنيا وهجرها لحساب الآخرة والذين سبقوا الملائكة المقربين... ولكون هؤلاء قد أسقطوا ظلاً على مرتبة "المقربين" عندهم فقد ظهروا بمظهر المغلوبين... فماذا حدث؟ الذي حدث هو سقوط سبعين شهيداً من الذين نعرف أسماءهم من بين بضع مئات من الصحابة.(١)

وجرح مثل هذا العدد منهم جرحاً بليغاً حتى أنهم عجزوا عن الحركة. وقد كان بإمكان المشركين إنزال ضربة أخرى بالمسلمين لولا أن المسلمين التجأوا إلى جبل أُحد. ورأى المشركون أن أصواتهم قوية وليست واهنة، فلم يرغبوا في الدخول إلى مخاطرة أخرى لذا، تركوا ساحة القتال فورا، إذ داخل الخوف قلوب المشركين، وكان عذر المشركين لهذا الخوف ولما يشبه الهزيمة هو: لقد آذيناهم إلى درجة أنهم لن يستطيعوا التخلص سريعاً من أثر هذه الهزيمة، إذن، فلنذهب، فمن يدري ما الذي سيحصل إن هجمنا عليهم مرة أخرى. فانسحبوا على هذا الأساس وتركوا ساحة القتال، ثم حين حرض أحدهم قريشاً (أصبح هذا فيما بعد صحابيّاً وقدم خدمات جليلة) على مواصلة القتال، والذي جاء وصفه في القرآن بأن الشيطان حرض قريشاً، وقال لهم أن أذهبوا إلى المدينة ما دام الوضع مساعداً. كان من الواضح أنه يريد منهم التوجه إلى المدينة لهدمها على رؤوس أهاليها مثلما فعل الرومان بمدينة قارطاجة، ولا يبقوا

---

(١) **البخاري**، المغازي، ٢٦

فيها فرداً واحداً، لأنه إن بقي منهم أحد تكاثروا بسرعة وأصبحوا مشكلة لهم.[1]

ما أن سمع الرسول ﷺ هذا حتى أصدر أمره بأن من كان معه يوم أُحد من الأصحاء أو الجرحى فليجتمعوا في المكان الفلاني لأنه سيذهب لملاقاة العدو.[2]

فهؤلاء الجرحى والمصابون الذين التجأوا قبل يوم إلى سفح جبل أُحد كانوا يستعدون لحملة أخرى، ذلك لأنه كان من الضروري إبداء قوة معنوية كبيرة تقوم بجبر معنوياتهم وإزالة مظاهر خيبة الأمل التي أصابت المسلمين والتي سنذكرها هنا:

أول مظهر من مظاهر خيبة الأمل هو انكسار القوة المعنوية للمسلمين، ثانياً تزايد شهية الكفار، ثالثاً تزايد شماتة المنافقين من حال المسلمين مما كان يؤثر على معنوياتهم. لذا، فإن الفكرة التي طرحها ذلك المشرك من وجوب التداعي والهجوم الجماعي على المسلمين لاستئصال شأفتهم بدأت تنتشر هنا وهناك وتتداولها الألسن، فكان هذا الأمر نذير خطر كبير على المسلمين، ولولا فطنة الرسول ﷺ وسرعة تداركه للأمر لكان من الممكن ظهور مشكلة كبيرة وخطر عظيم يصعب على المسلمين مواجهته... أجل، لقد أصابت المسلمين آنذاك أضرار فادحة -مثلما أصاب الجندي التركي في معركة شنق قلعة- ولكنهم استطاعوا أن يلموا شعثهم ويقلبوا الهزيمة التي كانت تلوح قريبة منهم إلى نصر بعون من الله تعالى.

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١٢٨/٣

(٢) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٥٦/٤

أجل، فما أن أصدر الرسول ﷺ أمره إلى هذه الجماعة بالتهيؤ والتجمع حتى تهيأوا وتجمعوا وانتقلوا إلى حالة الاستعداد للهجوم... كان بعضهم مصابا في يده أو في رجله، وبعضهم لا يستطيع المشي إلا بمشقة، ومع ذلك فما أن سمعوا دعوة الرسول ﷺ حتى تجمعوا في المكان المعين، فكأن أنفاس الرسول ﷺ قد أحيتهم ونفخت فيهم القوة والعزيمة. فبدأوا يتسابقون في الاستجابة إليه. وكما قال الشاعر البوصيري:

لو ناسبتْ قدرَه آياتُه عِظما   أحيا اسمُه حين يُدْعى دارسَ الرِّمم

أي لو كانت معجزاته على قدر قيمته ﷺ لأحيا ذكر اسمه الرمم الدارسة في القبور... لقد أحيت دعوته الجميع في أُحد فتسابقوا إلى إجابة دعوته.

والآن لنستمع إلى شرح هذه الحادثة من أحد الصحابة حيث يقول ما معناه:

"كان لي صديق لا يستطيع المشي فكنا نحمله على أكتافنا لأنه قال لنا أن نحمله إلى موضع القتال فإن لم يستطع رمي السهام فهو يستطيع استعمال الرمح. كان أحدنا يحمل الآخر، وربما سقط أحدنا وأغمي عليه، وهكذا حتى وصلنا إلى وادي حمراء الأسد. وهو موضع يستطيع فيه المشركون رؤية دخان مواقد المسلمين. فما أن رأى المشركون تجمع المسلمين الذين ظنوا أنهم أصابوهم إصابة بالغة لا يرجون منها شفاء حتى ذهلوا واحتاروا. وإذا بأبي سفيان الذي أصابه الفزع يصرخ فيهم: "الرحيل! الرحيل!" ذلك لأنه بدأ يخشى أن تدور الدائرة عليهم بعد أن فكروا في الإغارة على المدينة... أما الآن

فإن همهم الوحيد كان هـــو الإســـراع إلى مكة."[1]

فلو تأملتم لرأيتم كيف قام الرسول ﷺ بحل جميع مشاكل الحرب بنفحـــة واحدة وبضربة واحدة ودون أن يخلـــف أي مـــضاعفات ولا أي مـــشاكل. والقرآن الكريم يشير إلى هذا الموقف الحرج فيقول: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُم فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣).[2]

أجل، لقد تركت قريش كل شيء وهربت، أما المسلمون فقد تخلصوا من أثر الهزة التي أصابتهم أمس، ثم رجعوا إلى المدينة دون أن يـــصيبهم أي ضـــرر بنعمة من الله وفضل.[3] هناك بعض من كتاب السير والمغـــازي يـــذكرون أن معركة أُحد كانت هزيمة بالنسبة للمسلمين... أجل، إن كان هناك جانب من الهزيمة في معركة أُحد فهو يرجع إلى بعض الصحابة الذين لم يستمعوا إلى تعاليم النبي ﷺ واستشهدوا في تلك المعركة فرحلوا إلى الآخرة طـــاهرين مطهـــرين. ولكن هناك جانب نصر في أُحد، وأنا أرى الوقوف عند هذا الجانـــب الـــذي حققه الرسول ﷺ... أجل، فإن المهم هو القيام بقلب الهزيمة إلى نصر وهو مـــا فعله الرسول ﷺ.

---

(١) **البخاري**، المغازي، ٢٥؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٩٩-١١١؛ «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ٢/٤٢-٤٩

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/١٢٨

(٣) **البخاري**، المغازي، ٢٥؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٩٩-١١١؛ «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ٢/٤٢-٤٩

هناك مقولة للغرب تقال في حق الأمة التركية وهي: ''هناك أوقات تنتهي فيها مقاومة كل أمة، في هذا الوقت تبدأ هذه الأمة بالهجوم.''

والحقيقة أن هذه المقولة يجب أن تُقال في حق المسلمين الصادقين حيث تصبح صحيحة على الدوام، أي في الأوقات وفي الظروف التي تنتهي فيها مقاومة الأمم وتبدأ بالاستسلام يقوم الرسول محمد ﷺ ببدء الهجوم. وهذا الهجوم يقوم بحل المشاكل المتراكمة الواحدة فوق الأخرى، ويهب الأمل والإيمان إلى قلوب المؤمنين واليأس والقنوط إلى قلوب المنافقين، ويجعل أمنية المشركين حسرة في قلوبهم. فماذا يمكن أن يقال هنا بعد أن حول الرسول ﷺ الهزيمة إلى نصر وأعاد المسلمين إلى المدينة فرحين غالبين، وحل بحكمته هذه المشكلة المعقدة.. سوى الشهادة بأن محمداً ﷺ رسول الله حقا وصدقا؟

٢. الشورى

كان الرسول ﷺ يقوم بحل بعض المشكلات التي تعرض له عن طريق التشاور. وهو مع عدم حاجته إلى المشورة إلا أنه كان يريد إرساء قضية الشورى كقاعدة مهمة لأن الذين سيأتون من بعده كممثلين للأمة الإسلامية سيكونون في حاجة للشورى. أجل، فقد كان شخصاً وهب له التأييد الإلهي، فلم يتركه الله تعالى وحده في أي مسألة من المسائل، فلو ألم به مرض لتلقى الإلهام الإلهي بطريقة العلاج والشفاء؛ فقد كان على ارتباط وثيق بعالم الملكوت، ولكنه كان يعطي أهمية كبيرة لموضوع الشورى، وكان هذا بُعدا آخر من أبعاد فطنته وجانباً آخر من جوانب فراسته.

لقد أصبحت الشورى بعده بعدة عصور نظاماً لا يستغنى عنه في إدارة الدولة. ولكون الإدارة في الإسلام مفتوحة على الشورى ولكونها مرنة وواسعة وتستطيع أن تحتضن العصور بعالميتها فقد تخطت العصور عصراً عصراً حتى وصلت إلى أيامنا الحالية.

إليكم بعض الأمثلة:

١. كان ﷺ يشاور الجميع ويأخذ وجهة نظر الكل لأنه كان يريد إشاعة فكرة الشورى في حياة المجتمع وجعلها سائدة فيه. استشار علياً ﵁، وهو الإنسان الذي قال: "لو رُفع الغِطاء ما ازددتُ يقيناً" [(١)] ولكنه كان مع هذا تلميذاً في مدرسة الرسول ﷺ، وقد استشاره الرسول ﷺ مع أنه كان شاباً يافعاً.[(٢)]

كان المنافقون قد افتروا على أمنا عائشة رضي الله عنها فيما اشتهر بحادثة "الإفك" التي برأ الله تعالى فيها أمنا عائشة رضي الله عنها. ومع أن الرسول ﷺ كان موقنا بأن الوحي سيقول القول الفصل في هذا الأمر. ورغم كونه غير قلق من ناحية عائشة رضي الله عنها، إلا أنه قام مع هذا باستشارة أصحابه عدة مرات لأنه كانت هناك مصلحة في مثل هذه الاستشارات. لأن الاستشارة دائما مغانم وليست لها خسائر. وما بعث النبي ﷺ إلا لهدايتنا لما فيه الخير لنا.

وهناك رواية ضعيفة عن حادثة جاء فيها أن الرسول ﷺ دعا عمر ﵁ وسأله عن رأيه في عائشة رضي الله عنها فقال عمر: يا رسول الله! إن عائشة

---

(١) «**الأسرار المرفوعة**» لعلي القاري ص١٩٣

(٢) **البخاري**، المغازي، ٣٤؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٣١٣

بريئة وإنها طاهرة ونقية. فسأله الرسول ﷺ كيف عرف ذلك فأجاب عمـــر: "لقد عرفنا فيما بعد أنك كنت تصلي مرة دون أن تعرف أن نجاسة صغيرة قد مست نعلك فنزل جبريل عليه السلام وأخبرك بالأمر. وقال لك بأن تخلع نعلـــك.. فإذا كان الله تعالى يخبرك عن مثل هذه النجاسة الصغيرة فكيف يرضى لك أن تكون لك زوجة تقترف -حاشاها- مثل هذا الإثم؟ لا شك أن جبريل سيأتيك ليخبرك عن مدى عفة عائشة رضي الله عنها."

أجل، لقد قال الرسول ﷺ: «ما ندم من استشار.»[1] لذا، فقد استـــشار عمر. فمثل هذه الاستشارة لا تفقده شيئا، بل ربما كسب قلب عمر رضي الله عنه مرة أخرى. أجل، لقد كان الرسول ﷺ يتشاور مع طلابه ويأخذ آراءهم. ولا شك أن الرابح في هذه الاستشارات كان هؤلاء الطلاب، ذلك لأن الرسول ﷺ كان يلقن طلابه درساً أخلاقياً في هذا الخصوص. ثم أليس هو القائل: «ما ندم مـــن استشار.»

٢. عندما خرج لمعركة بدر استشار الرسول ﷺ المهاجرين والأنصار وأخذ بآرائهم، فتكلم المقداد بن عمرو باسم المهاجرين فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك. والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهـــب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْكِ الغِمَاد لجالدنا معك مـــن دونه حتى تبلغه." فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له. ثم قال رسول الله ﷺ:

---

(١) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٢/٢٨٠

«أشيروا عليّ أيها الناس» وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عـــدد النـــاس وأنهم حين بايعوه بالعَقَبة قالوا: يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممـــن دهمـــه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له ســـعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال ﷺ: «أجل.» قال: فقد آمنّا بك وصدقناك وشـــهدنا أن مـــا جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردتَ فنحن معك، فوالذي بعثـــك بـــالحق لـــو استعرضتَ بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلّف منا رجل واحد، وما نَكْرَهُ أن تَلقى بنا عدونا غدا. إنّا لصُبُر في الحرب صُدُق عند اللقاء، لعل الله يريـــك منا ما تقرّ به عينُك فسِرْ على بركة الله.[1]

كان الرسول ﷺ يقوم بالاستشارة لإظهار روح الاتفاق بين المسلمين. كان الأنصار والمهاجرون متفقين على شيء واحد... عزمهم على القتـــال وعلـــى الاستشهاد... أجل، لقد كان هذا هو الشيء الوحيد الذي كـــان علـــيهم أن يعملوه تجاه الجمع الحاشد لأعدائهم المملوئين حقداً وغيظاً والمتهيئين بسيوفهم ورماحهم وسهامهم للقضاء عليهم. أما رسول الله ﷺ فقد كان متهيئاً للدفاع

---

(١) **مسلم**، الجهاد، ٨٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٥٧/٣؛ «**السيرة النبوية**» **لابن هشام** ٢٦٦/٢-٢٦٧؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٢٠/٣-٣٢٢

عن الحق وعن الحقيقة وعن شرف الإسلام وعن كرامة الأمة الإسلامية، وكان يقوم باستشارة أصحابه ويبدي رأيه السامي على أوسع نطاق ويرسيه على أصلب أساس ويدع رأيه هذا يسري في مشاعر الصحابة وفي أحاسيسهم جميعاً دون استثناء. كما كانت الاستشارة غاية من غاياته. لقد رسم الله تعالى له الطريق وبين له ما يعمله، ولكنه إضافة إلى إرشاد ربه فقد كان يستشير أصحابه ليشاركهم وليشاركوه أفكاره ومشاعره في ذلك الموقف المهم. وما كان لأحد من أصحابه المخالفة في اتباعه والانقياد له أبدا، ذلك لأنهم أعطوه على ذلك عهداً وميثاقاً... وسيأتي يوم يقول لكعب بن مالك ﷺ معاتباً: «ما خلّفك، ألم تكن قد ابتعتَ ظهرك؟» كان كعب ﷺ قد أعطاه عهداً في العَقَبة على أن يكون مع الرسول ﷺ في اليسر والعسر ما تعاقب الليل والنهار.[1] لقد أعطوه عهدا، وألقوا بأنفسهم إلى الموت بملء إرادتهم.

كان الرسول ﷺ يقوم باستشارته هذه ليتبنى المسلمون جميعاً دعوته، فكان الجميع يهرعون لمساعدته على قدر طاقتهم ويرون حمل هذه الدعوة غاية لهم وهدفا لحياتهم، ويرون في الشهادة أحلى أمانيهم.

٣. عندما خرج الرسول ﷺ يوم بدر كان عليه أن يعين المكان الذي يترل فيه والآبار الموجودة هناك والتل الذي يجب أن يحتله، وكان عليه أن يشاور أصحابه في هذا الأمر.

قال ابن إسحاق: فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء حتى جاء أدنى ماء

(١) **البخاري**، المغازي، ٧٩؛ **مسلم**، التوبة، ٥٣

من بدر نزل به، فحُدِّثتُ عن رجال من بني سلِمة أنهم ذكروا أن حُباب بـــن المنذر بن الجموح قال: يا رسول الله أرايت هذا المترل، أمترلاً أنزلكه الله لـــيس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هـــو الرأى والحرب والمكيدة.» قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنـــزل، فـــامضِ بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننـــزله ثم نغور ما وراءه من القُلُب ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رســـول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأى.»[1]

٤. كان سلمان ﷺ عبداً فارسيا، كان مجوسياً في أول الأمر ثم تنـــصر ثم أسلم وهو عبد... وعندما أسلم لم يكن يملك مالا أو أهلاً. وهو يدين بكـــل شيء إلى الإسلام، وقد عبر سلمان ﷺ عن هذا الأمر بجملة وجيزة. فعنـــدما سألوه مرة عن نسبه، قال:

أبي الإسلام لا أب لي سواه   إذا افتخروا بقيس أوتميم

أجل، لقد وجد نسبه الحقيقي؛ فهو ابن الإسلام.

وفي معركة الخندق أو معركة الأحزاب استشار الرسول ﷺ أصحابه كما هي عادته، فأدلى كل برأيه وعندما جاء دور سلمان ﷺ قال للرسول ﷺ بأنهم اعتادوا في بلادهم على حفر خندق حول المدينة إن هاجمهم عدو، لـــذا فقـــد اقترح حفر خندق حول المدينة. وأعجب الرسول ﷺ بهذا الرأى فـــأمر بحفـــر

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٧٢/٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٢٦/٣

الخندق وشـــارك بنفسه في أعمال الحفر وشـــجع العاملين هناك.[1]

٥. لم يكن يستشير الرجال فقط، بل يستشير النساء أيضا، ففي الحُديبيـــة استشار زوجته أم سلمة رضي الله عنها، ولم ير بأساً في تنفيذ مـــا اقترحـــت عليه.[2]

لقد سلك هذا المسلك طوال حياته، واستطاع عن طريق الاستشارة تخطي مشاكل صعبة. وقد بدأنا نفهم مؤخراً مدى ضرورة الشورى وأهميتها في إدارة الدولة. أما المستبدون فقد تركوا وراءهم مئات المشاكل قبل أن يرحلوا. لقـــد علّم وجوب احترام الفكر والعقل؛ فهناك حكمة في وجود العقل، أي حكمـــة في التفكير وإجراء المحاكمات العقلية. وهناك حكمة من وجود الفكر البشري بحيث تتم مراجعة هذا الفكر حتى من قبل الدعوات المؤسسة علـــى الـــوحي، وحتى من قبل الأشخاص المتصلين بالوحي، حيث يتم تفسيرها بهذا الفكر. لذا، فمن لا عقل له لا يعد مكلفا في شرعنا، وهذا أساس من أسس ديننا.

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٣٥/٣؛ «**الطبقات الكبرى**» لابـــن ســـعد ٦٦/٢؛ «**البدايـــة والنهاية**» لابن كثير ١٠٩/٤

(٢) انظر: **البخاري**، الشروط، ١٥

الفصل الخامس:

وحدة النظر والقدم

والعمق الآخر لدى رسولنا ﷺ هو وحدة الفكر والتطبيق؛ فأي هدف توخاه استطاع أن يسير نحوه، وأي فكرة اقترحها استطاع تطبيقها؛ وعلى هذا الاعتبار استطاع أتباعه أن يطبقوا كل ما قاله دون أن يقعوا في حيرة أو تردد أو اضطراب.

أ- إنسان التخطيط

أصبحت الخطة من أهم المسائل في أيامنا الحالية. فأصبحت الدول والأمم تهتم بالتخطيط في كل شيء كأساس مهم في التنمية وفي حركة النهوض. ولتحقيق هذه الغاية تأسست عندنا هيئة الدولة للتخطيط، وإلا لما تحقق أي شيء في مجال النمو وفي مجال التقدم والنهوض المتوازن. ويمكن جس نبض المجتمع من خلال الخطط. فالتخطيط -في أحد أوجهه- شرط أولي لوضع بنية المجتمع تحت المراقبة والسيطرة. ولم يكن الرسول ﷺ يملك كومبيوتراً ولا عقلاً ألكترونياً ولا هيئة تخطيط، ولكنه كان يعطي القرارات الصائبة في التو واللحظة ثم يخطو لتنفيذها... كان يعطي قراراته لمسائل بعُمْر مئات من السنين، ولم يكن يترك أي مشكلة في أي مسألة من هذه المسائل. أي لم يقل أحد شيئاً ضد ما قاله حول أي مسألة من المسائل ولم يستطع أن يقول. علما بأنه كان مكلفاً -ذكرنا ذلك سابقاً من زاوية مختلفة- بالتبليغ. لذا، فكان عليه أن يكون دقيقاً

جداً بحيث يحسب حساب خطواته جيداً؛ فلا يتقدم ولا يتأخر مليمتراً واحداً أكثر أو أقل من المطلوب. وكل تفاصيل حياته شاهدة على ما نقول. ففي مكة نراه مثال الصبر ومثال التحمل، ينتظر دون كلل أو ملل... ينتظر على رأس الدعوة بصبر وهدوء.. هدوء المياه العميقة الغور بما نستطيع أن نطلق عليه اسم "الفعالية الصامتة". وفي هذا العهد يصدر أوامره بالهجرة إلى هنا وهناك ليحمي الضعفاء، لأنه كان في عهد اختل فيه ميزان القوة لصالح أعدائه، ولأنه لايملك القوة في ذلك العهد نراه يبذل قصارى جهده لعدم تهييج أو إثارة خصومه قدر الإمكان ومحاولة تهدئة الأمور. أما في المدينة فقد اتبع طريقاً آخر خطط فيه شكل الدعوة حسب القوى والتوازنات الموجودة وحسب قوة الطرف المقابل. والحقيقة أن تغير الاستراتيجية بين عهود مكة والمدينة وما بعدها نتيجة طبيعية لتغير وتيرة توسع الدعوة ونضوجها وتبلورها. فعهد مكة كان يتطلب طرزاً معيناً من التصرف، وعهد المدينة يتطلب طرزاً آخر. فلو تصرف الرسول ﷺ في مكة مثلما تصرف في المدينة لكان ذلك -حاشاه- نقصاً كبيراً في تخطيط هذا الشخص صاحب الخطط والاستراتيجية الدقيقة. فقد بعثه الله تعالى لكي يعطي القرارات الصحيحة ولينقذ البشرية من الاضطراب والحيرة.

أجل، لقد اتبع في المدينة طريقة آخرى... وكان هذا ضروريا، فكل خطوة خطاها كانت مقدمة للخطوة القادمة، والخطوة التالية كانت طبعاً نتيجة للخطوة السابقة؛ فلم يخط في حياته خطوة واحدة إلى الخلف. فكيف يخطو الرسول ﷺ خطوة إلى الخلف وهو الذي استخرج النصر من الهزيمة في معركة أُحد؟ لم يخط أبداً إلى الخلف... بل إن كل خطوة من خطواته تشهد أنه رسول الله. فأسلوبه

وطريقة تصرفه في موضوع الهجرة مثال حي على هذا. فما كانت الهجرة إلى الحبشة والمدينة إلا مقدمة وباباً سرِيّا لبزوغ عهد الهداية والانتصارات.

ب- المشكلة المحتملة الآن: العنصرية

كم من مشكلة حلها الرسول ﷺ آنذاك و لم تحلّ حتى الآن. أما المشاكل التي ستأتي في المستقبل القريب ثم في المستقبل البعيد فهي كثيرة ومتداخلة بعضها مع بعض. فمثلاً هناك احتمال كبير أن تصبح قضية الزنوج في المستقبل البعيد من أهم المشاكل التي ستدوخ البشرية. فهذه المشكلة المتحفزة للوثوب حالياً والتي تنتظر الفرصة المناسبة للانقضاض والانفجار تقلق كل المراقبين الذين يقدرون مبلغ خطورتها.

لماذا؟ ذلك لأنه لا ينظر إلى الزنجي نظرة إنسان حتى ونحن على أعتاب الدخول إلى القرن الحادي والعشرين. فهو مهان في جنوبي إفريقيا بسبب لونه، وهو لا يستطيع تبوأ أي منصب مهم في الولايات المتحدة الأمريكية. كما يتعرض الأجانب في فرنسا وألمانيا إلى الضرب وإلى المهانة. بينما وضع الرسول الكريم ﷺ يده العطوف على هذه المشكلة وحلها بكل بساطة. أجل، فالناس -حسب المبادئ التي جاء بها- سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي ولا فضل لأعجمي على عربي.(١) ويجب إطاعة عبد حبشي إن جاء إلى الحكم بشروطه.(٢)

---

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ٥/٤٤١؛ «**كشف الخفاء**» للعجلوني ٢/٣٢٦؛ «**الفوائد المجموعة**» للشوكاني ص٢٢٧؛ «**المسند الفردوس**» للديلمي ٤/٣٠٠

(٢) **البخاري**، الأحكام، ٤؛ **مسلم**، الإمارة، ٣٧؛ **ابن ماجه**، الجهاد، ٣٩

وانسجاماً مع أحاديث كثيرة للرسول ﷺ التي شرحت هذا الموضوع نرى عمر بن الخطاب ﷺ يقول عن بلال ﷺ: "أبو بكر سيّدُنا وأَعتَق سيّدَنا" يعني بلالاً.(١)

كان زيد بن حارثة ﷺ أسود البشرة، وبيع للرسول ﷺ عبداً فأعتقه الرسول ﷺ وجعله حراً وتبناه، أي جعله ابناً له.(٢) وكان هذا أمراً لا يتصوره أحد وشيئاً غير مستساغ. فكيف يقوم إنسان من نسب معروف ومشهور بتبني عبداً أسود ثم جعله وارثاً له.(٣) ثم جعل ابنه أسامة قائداً على جيش فيه كبار الصحابة من أمثال أبي بكر وعمر وعلي ﷺ.(٤) وأعظم من هذا قيام النبي ﷺ بتزويج زيد من زينب بنت جحش(٥) التي كانت ذات حسب ونسب وكانت جديرة بأن تكون زوجة نبي.

وإضافة إلى هذا كان زيد بن حارثة وابنه أسامة ﷺ مقربين إلى رسول ﷺ إلى درجة أن عبد الله بن عمر ﷺ شكا إلى والده الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ قائلاً له: يا أمير المؤمنين فضّلت عليَّ من ليس هو بأقدم مني سناً ولا أفضل مني هجرة، ولا شهد من المشاهد ما لم أشهد. قال: ومن هو؟ قلت: أسامة بن

---

(١) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ٢٣؛ «**أسد الغابة**» لابن الأثير ٢٤٣/١-٢٤٥

(٢) وذلك قبل تحريم التبني. (المترجم)

(٣) **البخاري**، المغازي، ١٢، النكاح، ١٥؛ **أبو داود**، النكاح، ٩؛ **النسائي**، النكاح، ٨؛ «**الإصابة**» لابن حجر ٥٦٣/١-٥٦٤؛ «**أسد الغابة**» لابن الأثير ٢٨١/١

(٤) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ١٧؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٦٣

(٥) «**الإصابة**» لابن حجر ٥٦٤/١

زيد، قال: صدقتَ لَعَمْرُ الله! فعلتُ ذلك لأن زيد بن حارثة كان أحب إلى رسول الله ﷺ من عمر، وأسامة بن زيد كان أحب إلى رسول الله ﷺ من عبد الله بن عمر، فلذلك فعلت.[١]

أجل، لقد كان أمراً جللاً آنذاك أن يكون زيد بن حارثة ﷺ قائداً على جيش يشترك فيه أحد أشراف قريش مثل جعفر بن أبي طالب ﷺ...[٢] ليس المهم هنا سرد المدائح حول هذا الموضوع... المهم هو التطبيق الفعلي لهذا المبدأ في الحياة الواقعية وجعله واقعاً معاشاً.

فالحل الوحيد لهذه المشكلة التي تهدد الإنسانية في المستقبل -كما أشرنا إليها قبل قليل- هو التعامل مع الزنوج على أساس المبدإ الإسلامي دون إضاعة الوقت. لأن على الإنسانية أن تجرب هذا الحل قبل فوات الأوان.

الناس ولدتهم أمهاتهم أحراراً، وليس من حق أحد ولا من صلاحية أحد استعباد أي أحد. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣).

ج- الحُديبية

لنذكر مرة أخرى فنقول إن الرسول ﷺ كان قائداً وزعيماً لا مثيل له في تطبيق أفكاره عملياً وجعلها واقعاً وحقيقة. ويمكن إيراد أدلة وشواهد لا حصر لها في هذا الخصوص، إلا أننا سنكتفي هنا بإيراد مثال واحد.

---

(١) «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ٧٠/٤؛ «**الإصابة**» لابن حجر ٥٦٤/١

(٢) **البخاري**، المغازي، ٤٤؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٩٩/٥

يروي ابن إسحاق أنه في السنة السادسة للهجرة وعد رسول الله ﷺ أصحابه -الذين بلغ بهم الشوق غايته- بأداء العمرة. فمثل هذه العمرة كانت ستطفىء نار اللوعة والشوق التي تتأجج في صدور المهاجرين إلى وطنهم، وتعطي قوة دافعة جديدة للمسلمين، فخرج الرسول ﷺ في ١٤٠٠ من أصحابه متوجهاً إلى مكة.

كان الرسول ﷺ قد أرسل من قبل رجلاً من قبيلة خُزاعة -وأهل مكة لا يعرفون أنه من أصحاب الرسول- ليتقصى له الأخبار. فوردت إليه الأخبار بأن قريشاً جمعت قبائل العرب واتفقت معها على منع الرسول ﷺ والمسلمين من دخول مكة.

أجل، كانت قريش عازمة على منع المسلمين من دخول مكة وإن تطلَّب الأمر استعمال السلاح. وفعلاً طبقت ما عزمت عليه إذ وضعت المحاربين في موقع "بَلدَح"، وجاء خالد بن الوليد أو عكرمة بن أبي جهل ومعهما ٢٠٠ محارب إلى كُراع الغَميم وهي بين رابغ والجُحْفة. وعندما بلغت هذه الأنباء رسول الله ﷺ توجه إلى هناك بالمسلمين، فسمع خالد بذلك فأسرع إلى مكة يخبر قريشاً بما استجدّ من أخبار. وفي هذه الأثناء كان الرسول ﷺ قد بلغ الحُديبية.[1] والحُديبية اسم لمكان يبعد عن مكة ٥٠-٦٠ كم تقريبا، وكان هناك في السابق بئر في هذه المنطقة بهذا الاسم. فأطلق هذا الاسم على قرية موجودة هناك.

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣٢٣/٣؛ «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ٩٥/٢

١. معجزة الماء

لم يكن في هذه المنطقة التي نزل بها المسلمون أي ماء... كانت هناك بئـــر من قبل، ولكنها الآن جافة لا ماء فيها فقيل له: يا رسول الله ما بالوادي مـــاء يتزل عليه. فأخرجَ سهماً من كنانته وأعطاه إلى رجل من أصحابه فتزل بـــه في قليب من تلك القُلُب فغرزه في جوفه فجاش بالرواء. كانت هذه معجـــزة لا شك فيها، إذ أظهر الله تعالى معجزة على يد نبيه ليسعف حاجة الـــصحابة إلى الماء. وشرب الجميع من هذا الماء وتوضأوا منه وملأوا أوعيتهم.

٢. الرسل

مع أن قبيلة خُزاعة لم تكن قد أسلمت بعد، إلا أهم تحالفوا مع المسلمين. وعندما سمعت بتهيء أهل مكة للقتال أسرع وفدٌ منهم وأخبروا الرســـول ﷺ بالأمر... كان بُديل بن ورقاء من بين الوفد و لم يكن مسلماً آنـــذاك إلا أنـــه أسلم بعد فتح مكة؛ ونظراً لكون الرسول ﷺ يثق فيه فقد أرسله إلى أهل مكة يخبرهم بأنه لم يأت للقتال بل لأداء العمرة.

جاء بديل إلى مكة وبلغ رسالة النبي ﷺ لهم، وكان عروة بن مسعود الثقفي من بين المستمعين، فرأى أن ما قاله بُديل أمر معقول، فاقترح على أهل مكـــة إرساله للنبي ﷺ للتفاوض معه، فرضوا به رسولاً.

جاء عروة إلى النبي ﷺ وبدأ يحادثه، ثم جعل يتناول لحية الرسول ﷺ –على عادة العرب– وهو يكلمه والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد، فجعل يقرع يده إذ يتناول لحية رسول الله ﷺ ويقول: اكفُفْ يدك عن

وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك. وسأل عروةُ: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة. قال: أيْ غُدَر، وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس. إذ كان قد دفع الدية عنه عن جريمة ارتكبها مغيرة... لكم تغير ابن أخيه مغيرة بعد إسلامه حتى أنه لم يعرفه... ثم ما هذا الحب الشديد الذي يبديه المسلمون نحو زعيمهم... لقد ذهل إذ رأى ما يصنع به أصحابه: لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه. وعندما رجع إلى قريش قال لهم:

"يا معشر قريش! إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فَرُوا رأيكم."

لم يثمر هذا التفاوض عن شيء فأرسل الرسول ﷺ خِرَاش بن أمية الخُزاعي إلى قريش وحمله على بعير له، ولكن قريشاً عقروا جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتل خِرَاش بن أمية الخُزاعي فمنعه الأحابيش فخلوا سبيله حتى رجع إلى الرسول ﷺ.

٣. عثمان رضي الله عنه مبعوثاً للنبي ﷺ

أصبح من الضروري إرسال مبعوث آخر إلى قريش، وتم اقتراح اسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه في بادئ الأمر، غير أن أعداء عمر كانوا كثيرين وأصدقاءه قليلين، لذا كان نجاحه في التفاوض مشكوكاً فيه، وعندما أبلغ عمر رضي الله عنه رسول الله ﷺ برأيه هذا تقرر إرسال عثمان بن عفان رضي الله عنه.

قامت قريش بحبس عثمان ﷺ، ثم شاعت الأخبار أنهم قتلوه، وقويت هذه الإشاعة بعد تأخر رجوع عثمان ﷺ. وعندما بلغ الرسول ﷺ أن عثمان ﷺ قد قتل قال ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم.» ودعا إلى البيعة. وجلس الرسول ﷺ للبيعة تحت شجرة، لذا سميت هذه البيعة بـ"بيعة الرضوان تحت الشجرة" فأقبل المسلمون يبايعونه على الموت. وقام عمر بن الخطاب ﷺ في عهده بقطع هذه الشجرة إذ خاف أن يقدسها الناس.[١]

٤. بيعة الموت

ما أن علم المسلمون بأمر البيعة حتى أسرعوا إلى الرسول ﷺ لأداء البيعة... البيعة للقتال حتى الموت... أدى الجميع البيعة بحماسة عدا شخص واحد.[٢]

كان هناك شخص واحد في مكة لم يستطع المشاركة في هذه البيعة، وهو عثمان بن عفان ﷺ الذي لم يكن أحد من المسلمين يعرف عما إذا كان حياً أم ميتاً. في هذه الأثناء كان الرسول ﷺ يعيش إحدى فتراته التي يتجاوز فيها الزمان والمكان وينطويان أمامه... رفع رسول الله ﷺ يده اليمنى قائلاً: «هذه يدي.» ثم رفع اليسرى قائلاً: «وهذه يد عثمان» ثم ضرب إحداهما بالأخرى.[٣] ما أقدس هذه البيعة التي يقوم الرسول ﷺ بالوكالة فيها..

كان الأمر خطيراً جدا، لأن المشاعر كانت متوترة والأحاسيس متأججة

---

(١) «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ١٠٠/٢

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣٣٠/٣

(٣) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣٣٠/٣

تكاد تنفجر... كان الرسول ﷺ هو الشخص الوحيد الذي بقي مالكاً زمـــام نفسه ورباطة جأشه... ومع أن نفسه كانت مثل بركان يغلي ويكاد يقــذف بالحمم، إلا أنه استطاع السيطرة عليها والتحكم فيها بإرادته التي تفــوق إرادة البشر. رُحْماك يا رب! ما هذه الإرادة الصلبة..!

٥. انكشفت الغمة

وبينما كان هذا الجو المتوتر سائداً شاهد الرسول ﷺ غباراً لفارس متوجــه إليهم، فإذا به سُهَيْل بن عمرو وكان الرسول ﷺ يعرفه فقال لمن حوله: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل. فهل تفاءل الرسول ﷺ باسم سهيل فرأى أن الأمور بدأت تسهل..؟ هذا موضوع آخر. ولكن انظروا إلى مدى معرفــة الرسول ﷺ بالناس وخبرته بهم، إذ ما أن رأى سهيلاً حتى حــدس النتيجــة. صحيح أنه عندما رأى عروة قال إن قريشاً تريد الصلح، إلا أن الأمر تأكد مع سهيل، وقد صدّقت الحوادث تخمين الرسول ﷺ إذ أكد سهيل أنه جاء لإبرام الصلح.

٦. الاتفاق

كانت فقرات الاتفاق أو المعاهدة التي أبرمها النبي ﷺ تبدو وكأنها في غــير صالح المسلمين، إلا أن القرآن الكريم أشار إلى كونها نصراً في نهاية المطاف.

كان سهيل يَعُدّ كل تنازل يقتطعه من المسلمين نصراً كبيراً له، لــذا فإنــه كان يعترض حتى في أصغر المسائل. فمثلاً عندما دعــا الرســول ﷺ علــــياً ليكتب معاهدة الصلح مع قريش قال له: «اكتب بسم الله الرحمن الــرحيم.»

فقال سهيل: لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم. فقال رسول الله ﷺ: «اكتب باسمك اللهم.» فكتبها ثم قال اكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سُهَيْل بن عمرو.» فقال سُهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن أكتب اسمك واسم أبيك. فأشار الرسول ﷺ لعليّ ﷺ أن يمحو كلمة "رسول" التي كان قد كتبها. وتردد علي ﷺ إذ صعب عليه محو كلمة "الرسول" فقام النبي ﷺ بمحو تلك الكلمة بنفسه وقال: «اُكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سُهَيْل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا إسلال ولا إغلال وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.»

فتواثبت خُزاعة فقالوا نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم. ثم كان من الشروط التي ذكروها للرسول ﷺ أنه: وإنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً، معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها.

٧. هياج عمر ﷺ

بدت بنود المعاهدة في النظرة الأولى مجحفة بحق المسلمين، ولاسيما الفقرة التي كانت تقضي بإرجاع المسلمين الهاربين من أذى المشركين إلى قريش، فقد

أثارت هذه الفقرة المسلمين ولاسيما عمر بن الخطاب ﵁ فذهب إلى الرسول ﷺ والألم يعتصر قلبه، وقال له: يا رسول الله! ألست برسول الله؟

قال الرسول ﷺ: «بلى.» قال عمر: أوَلسنا بالمسلمين؟

قال ﷺ: «بلى.» قال: أو ليسوا بالمشركين؟

قال ﷺ: «بلى.» قال: فعلام نعطي الدَّنِيَّة في ديننا؟!

قال الرسول ﷺ: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني.»

ثم ذهب عمر ﵁ إلى أبي بكر ﵁ وقال له الكلام نفسه فقال له أبو بكر ﵁: "يا عمر! الزم غَرْزه، فإني أشهد أنه رسول الله." قال عمر: "وأنا أشهد أنه رسول الله." وقد ندم عمر فيما بعد على فقده أعصابه آنذاك وكان يقول: "ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمته يومئذ حتى رجوت أن يكون خيراً."

٨. أبو جندل

ولنرجع إلى إبرام الاتفاقية... فإنه ما أن تم التوقيع عليها حتى جاء أبو جندل يرسف في الحديد هارباً من مشركي قريش، وكان أبو جندل ابنَ سهيل بن عمرو الذي وقع الاتفاقية مع الرسول ﷺ: فلما رأى سهيل بن عمرو ابنه أبا جندل قام إليه وضرب وجهه وأخذ بتلبيبه وقال: يا محمد، قد لَجّتْ القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. فقال الرسول ﷺ وهو آسف ومهموم: «صدقت.» فجعل سهيل ينتره بتلبيبه ويجره يعني يرده إلى قريش. وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته:

يا معشر المسلمين أرد إلى المشركين يفتنوني في ديني! فزاد همّ المسلمين. وأراد الرسول ﷺ أن يبشر أبا جندل بأن هذا وضع موقت وأن الفرج قريب فقال له: «يا أبا جندل! اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فَرَجاً ومخرجاً.» وتحقق فعلاً قول الرسول ﷺ.[1]

٩. أبو بَصير وأصدقاؤه

بعد صلح الحُديبية مباشرة هرب من مكة عُتْبَة بن أَسِيد المكنى بأبي بصير والتجأ إلى رسول الله ﷺ في المدينة، فأرسلت قريش رجلين ليطلبا إرجاع أبي بصير، فأعاده الرسول ﷺ إليهما. ولكن أبا بصير استطاع أن يقتل في الطريق أحد الرجلين، وفر الثاني. وجاء أبو بصير إلى الرسول ﷺ وقال: يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم. فلم يقبل النبي ﷺ بقاءه في المدينة لأنه كان قد أعطى عهداً وهو ملتزم بعهده وبكلمته. فخرج أبو بصير خارج المدينة وانتهى إلى موضع يقال له سِيف البحر وهو قريب من ذي المروة. وما أن سمع ضعفاء المسلمين في مكة بأمره حتى بدأوا يهربون إليه –وكان أبو جندل بن سهيل بن عمرو أولهم– حتى اجتمعت منهم عصابة بدأت تترصد قوافل قريش إلى الشام، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لما أرسل إليهم فمن أتاه فهو آمن. فأرسل إليهم النبي ﷺ واستقدمهم إلى المدينة، وهكذا زال بند ظالم في هذه المعاهدة؛ وذلك بطلب وإلحاح من أهل مكة أنفسهم. وكان هذا فتحاً مبيناً للمسلمين.[2]

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٣٢١-٣٣٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/١٨٨-١٩٣

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٣٣٧-٣٣٨

وفي أثناء الرجوع من الحُديبية بدأت سورة الفتح بالنزول. وقد وصفت السورة معاهدة الحُديبية بأنها كانت فتحاً مبيناً.[1]

كان رسول الله ﷺ راضياً جداً... فكل ما فكر فيه كان يتحقق عندما يأتي أوانه... لقد بذر بذور هذا النصر في الحُديبية، ولكنه لم يظهر واضحاً أمام الأعين إلا الآن... فها هم أبطال سيف البحر من الشباب الغض يَفِدون إلى المدينة ويدخلونها عن طريق "ثنيات الوداع" فيستقبلهم أهل المدينة ويستقبلهم الرسول ﷺ بكل بشر وفرح... لقد اضطر المشركون البغاة إلى نقض معاهدتهم بانفسهم...

ثم سيأتي يوم يقوم فيه المشركون باعتداء غادر على إحدى القبائل المتعاقدة والمتضامنة مع النبي ﷺ، أي يقومون بنقض معاهدتهم.[2] فيقوم الرسول ﷺ بالسير إلى مكة وفتحها وإحراز النصر النهائي الذي وضع أساسه في الحُديبية.

د- نتائج صلح الحُديبية

والآن لنستعرض ثمار صلح الحُديبية... فماذا جلب صلح الحُديبية؟ وماذا كسب المسلمون منه؟

كان سيف الإسلام خالد بن الوليد ﷺ أول من أسلم في عهد هذا الصلح. لم يكن خالد بن الوليد شخصاً يسلم نتيجة هزيمة في الحرب... وما كان له أن يكون كذلك... فما كان من الممكن لعزة نفسه التي انقلبت فيما بعد إلى عزة

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٣/٣٣٤

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٤/٣٢-٣٧

إسلامية أن يكون ممن يسلم بحد السيف. فقد يسّر الله تعـالى بلطفـه لهـذا الشخص الذي سيكون قائداً لا نظير له في المستقبل أن يدخل إلى الإسلام بعزة نفسه؛ فلولا وجود فترة صلح مثل هذه الفترة ما كان في الإمكان ذوبان جليد قلب خالد.

لقد وجد خالد في فترة الصلح هذه الفرصة للتفكير... لقد أثرت ظـروف صلح الحُديبية وما بدا ظاهرياً أنه كان ظلما للمسلمين، كذلك أثـرت حـال المسلمين حين أقبلوا يؤدون العمرة بعد عام... أثرت هذه الظروف على العديد من أصحاب العقول أمثال خالد بن الوليد تاثيراً كبيراً... لقد كانـت فتـرة الصلح هذه فترة تطهر بالنسبة له، و لم تمض سوى فترة يسيرة حـتى جـاء إلى الرسول ﷺ ليعلن إسلامه.[١]

لقد كان قيامه بإعلان إسلامه طواعية وبملء اختياره سـبباً في أن يكـون "سيف الله"، وكان رسول الله ﷺ يتوقع منه هذا. كما كان عمرو بن العـاص ممن أسلموا في هذه الفترة.[٢] فالحياة الرتيبة المملة التي أتت بعد صلح الحُديبيـة جعلت السأم يتسرب إلى قلوب هؤلاء الأبطال، ودفعتهم إلى اختيار الجبهة التي تموج بالحركة والحياة... الجبهة التي يقودها الرسول ﷺ.

كان عثمان بن طلحة أيضاً من الرجال العظام الذين كسبهم الإسـلام في هذه الفترة، وكانت مفاتيح الكعبة لديه قبل إسلامه وعند فتح مكـة أعطـاه

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/٢٧٢

(٢) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/٢٦٩

الرسول ﷺ مفاتيح الكعبة. هؤلاء الأشخاص بدهائهم السياسي والعسكري كانوا يستطيعون دحر الجيوش، ولكنهم رجعوا إلى أنفسهم في فترة الصلح هذه واهتدوا إلى الحق.

١. لا أحد يحتكر الكعبة

كانت قريش حتى ذلك اليوم تنظر إلى الجميع باستعلاء وبكبرياء؛ ولسانُ حالها يقول: "نحن أصحاب بيت الله". فلا يقترب أحد من الكعبة إلا بإذنهم. وكان على كل من يزور الكعبة أن يدفع ضريبة معينة وإلا منع من هذه الزيارة.

وفي صلح الحُديبية لم يذكر شرط دفع هذه الضريبة أو الإتاوة، وكان هذا خطأ كبيراً لحساب قريش، فعندما طاف المسلمون حول الكعبة بعد عام دون دفع هذه الإتاوة تنبهت القبائل الأخرى... إذن، فقريش ليست الصاحبة الوحيدة للكعبة وإلا فكيف استطاع المسلمون الآتون من المدينة الطواف حول الكعبة دون دفع هذه الإتاوة؟ ولماذا لا يملكون هم أيضاً مثل هذا الحق..؟ كان الجميع يتحدثون بهذا... لقد تبين لهم أن قريشاً وحدها لا تملك الكعبة، لذا فقد أتى الجميع في السنوات المتعاقبة إلى البيت الحرام دون أي عراقيل.

٢. السلم أفضل جوّ للقيام بالدعوة

لقد توفر جو من الأمن وتم الخلاص من مشكلة قريش لمدة عشر سنوات. وكانت هذه الفترة مهمة جداً بالنسبة للمسلمين وضرورية لهم، إذ وجد الرسول ﷺ الفرصة مواتية لإرسال الكوادر التي رباها وهيأها إلى مختلف

الجهات، وكان هذا يعني ارتفاع صوت الإسـلام في جميـع أنحـاء الجزيـرة العربية... أجل، لقد بدأ صوت القرآن يعلو في كل مكان، وبدأ الناس يهرعون ويستجيبون لنداء الإسلام. وهذه هي الفترة التي وصفها القرآن بقوله ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أفوَاجاً﴾ (النصر: ٢). وعشر سنوات يعني تربية نسل جديد. و لم تكن قريش تدرك كيف أنها أعطت للمسلمين فرصة ثمينـة، ولـو أدركت ذلك لما اقتربت من مثل هذه المعاهدة. واستغل المسلمون هذه الفتـرة ليقطعوا شوطاً مهماً من الناحية النوعية والكمية. وكـان الـذين يلتحقـون بالإسلام يزيدون القوة العسكرية الإسلامية ويزيدون الأمل لدى المسلمين، لذا فما أن حان الوقت المناسب وتوجه المسلمون لفتح مكة لم يكن أمام قـريش سوى الاستسلام.

٣. التعرف على الإسلام في الصلح

وفائدة أخرى وفرها صلح الحُديبية وهي أن العلاقة بين الطـرفين –حـتى صلح الحُديبية– كانت مقطوعة فلا يذهب أحدهما إلى الآخر. وكانت العلاقة الوحيدة بينهما هي التقابل في ساحات القتال. وفي ظروف الحرب لم يكن من الممكن تبليغ حقائق الإسلام إلى الطرف المقابل. وعندما تأسس الصلح بـدأت الزيارات تقع بين الطرفين؛ والذين كانوا يجهلون فضائل الإسلام وجماله بدأوا يرونه عندما يزورون المدينة فيعجبون بهذا الجمال وينبهرون بهـذه الفـضائل والمحاسن التي يشاهدونها... كانت الحياة في المدينة كأنها قطعة مـن الحيـاة في الجنة يسحر من يشاهدها... الوضوء... الأذان... صلاة الجماعة... خـشوع الناس في الصلاة والاطمئنان والأمان الذي يلفهم ويحيط بهم... كل هذا يسحر

قلوب أهل مكة ويجذبهم إلى الإسلام. وبفضل صلح الحُديبية لم يبق تقريباً بيت لم يصله صوت الإسلام ورسالة القرآن، حتى بيت أبي جهل ولو كان أبو جهل حيا لبقي وحده في البيت خارج دائرة الإسلام. لذا، فقد كان صلح الحُديبية نصراً وفتحاً قبل فتح مكة.

أجل، لقد كان الرسول ﷺ عندما يخطو خطوة يعرف جيدا كيف يخطوها. وما أن ينكشف أمام ناظريه مجال حتى يضع قدمه فيه؛ كانت وحدة الفكر والحركة عنده تقوم بالتغلب على جميع المصاعب.

٤. الاعتراف بالإسلام رسمياً

والفائدة الخامسة التي أمنها صلح الحُديبية هي أن جميع الأقوام والقبائل اعترفت بالدولة التي أسسها الرسول ﷺ في المدينة وبحقها في إبرام المعاهدات مع من يشاء. فكما تقوم حاليا الدول المتشكلة حديثاً أو التي أعلنت استقلالها حديثاً بإبراز تعامل الدول الأخرى معها كدليل على اكتسابها الشرعية الدولية، كذلك كان الأمر بالنسبة للرسول ﷺ الذي أبرم مثل هذه المعاهدة. فلماذا لا يعترف به أهل الطائف مثلا وهذه قريش قد اعترفت به بل وعقدت معه صلح الحُديبية؟ أجل، لقد تعاقبت الاعترافات بعضها وراء بعض.

هكذا كان الرسول ﷺ شخصاً رائعاً استطاع أن يستخلص هذه الانتصارات من مثل هذه المعاهدة التي كانت تحتوي على شروط قاسية. ففي جو لم يكن متاحاً له التفكير الطويل كان عليه أن يتخذ قراره ويوقع على هذه المعاهدة التي جلبت انتصارات غير متوقعة لم تكن تخطر على بال أحد. ولا شك أن هذه

الانتصارات التي تجاوزت حدود تصورات وخيال البشر شاهدة على كونه ﷺ رسولاً من عند الله؛ لأنه ما من إنسان مهما كان عبقرياً استطاع أن يصل إلى مثل هذا النصر من معاهدة بدت ظاهريا أنها هزيمة بالنسبة للمسلمين. ولأن مثل هذا النجاح منوط بقوة وبإرادة وبعلم يتخطى الحدود البشرية.

٥. كان الله وراء ذلك

أجل، فعندما يتأمل المرء المسائل والمشكلات التي حلها ﷺ لا يملك إلا أن يرى القوة المحيطة بالوجود وهي تقف وراءه. وإن أداءه لهذه الرسالة والأمانة – الثقيلة ثقل الجبال– مثل هذا الأداء الممتاز شاهد على أن يد القدرة ويد الصيانة هي التي تولت رعايته ﷺ وحفظه وحمايته وكأنها تقول: "إنه رسول من عندي" فلا نملك نحن تجاه ذلك إلا أن نهتف بوجد: "محمد رسول الله ﷺ "

لقد كان الرسول ﷺ يتخذ قراره بسرعة ويستطيع أن يلم بأطراف الموضوع في أقل وقت، وما من أمر تناوله إلا ونجح في إنجازه. وهذه هي سيرة حياته تشهد بأنه ما من أمر فصله أو قرار اتخذه أو سلوك سلكه اضطر فيما بعد إلى تكملة النقص فيه، أو تصحيح انحراف به. بل إن بعضاً من القضايا التي بدت في نظر الآخرين أولا وكأنها هزيمة ما إن مد يده إليها حتى حول هذه الهزيمة إلى انتصار، وجعل الإدبار إقبالاً... فالهزائم كانت تنقلب في يديه إلى انتصارات. فكأنه كان يقلب طبيعة الأمور، ويغير مجراها وسبل سيرها فيعطي لها طبيعة أخرى ومجرى آخر. هذا علماً بأن كل هذا من الأمور التي ترجع إلى الله تعالى ﴿وَاللهُ خَلَقَكُم وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافّات: ٩٦).

فالله تعالى كان يخلق أفعاله بيد أكمل وأشرف وأفضل مخلوقاته... لمـــاذا؟ لأنه كان يريد أن يقول: هذا عبدي وهو رسولي... فاعلموا هذا... واعلمـــوا أني مؤيده في كل شيء... فلو تجاوز عددكم الملايين والبلايين وكان هو واحداً فريداً لانتصر عليكم جميعاً... لماذا؟ لأني أؤيّده وأنصره إذ "لا حول ولا قوة إلا بالله." ويجب ألا ينسى أحد أنني وراءه، فمن حارب من كان الله تعـــالى وراءه فكأنه يحارب الله تعالى.

لم يُغلَب محمد ﷺ، و لم يكن من الممكن أن يُغلب، والذين كانوا يحـــاولون التغلب عليه إنما كانوا يناقضون عقولهم وقلوبهم... أي أنهم لم يكونوا ســـوى أشخاص بؤساء يحاولون التعرض لعمل مستحيل. والله تعالى يعطـــي لأمثـــال هؤلاء بعض الإشارات والإيماءات "أن أفيقوا... أفيقـــوا أيهـــا المتجـــاوزون حدودهم." فإن لم يفهموا كل هذه الإشارات أمسك بهم وأنهى أمرهم.

أجل، لا يمكن محاربة محمد ﷺ ولا مجابهته والتعرض له، ذلك لأن الله ناصره، حتى إنه يقول له حين بدر تجاهه شيء من زوجاته ﴿فَإِنَّ اللّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيـــلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (التحريم: ٤). أي أن سكنة الـــسماء كلهم بجانبك... وعندما يكون كل هؤلاء من جندك فلن تغلبـــك الملايـــين ولا البلايين إن تعرضوا لك، ومن يفعل ذلك فكأنه يناطح الصخر الصوان برأسه حتى يحطمه. وقد يمهل الله تعالى مرة أو عشرا أو عشرين أو ثلاثين مرة لكي لا يبقـــى لهؤلاء أي عذر وكأنه يقول لهم: "تأملوا! وافهموا... وتعالوا إلى الصراط المستقيم لكيلا يبقى لديكم أي عذر يوم القيامة." ولكنه عندما يأخذهم يأخذهم أخذ عزيز

مقتدر، كما ورد في أحد الأحـــاديث الشـــريفة.[١]

تم الجزء الرابع من سلسلة النور الخالد

ويليه الجزء الخامس وهو

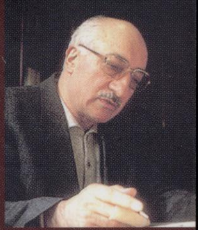
"الرسول ﷺ قائداً، التنظير والتطبيق".

والحمد لله أولاً وآخراً.

---

(١) **البخاري**، تفسير سورة (١١) ٥؛ **مسلم**، البر والصلة، ٦١

فهرس



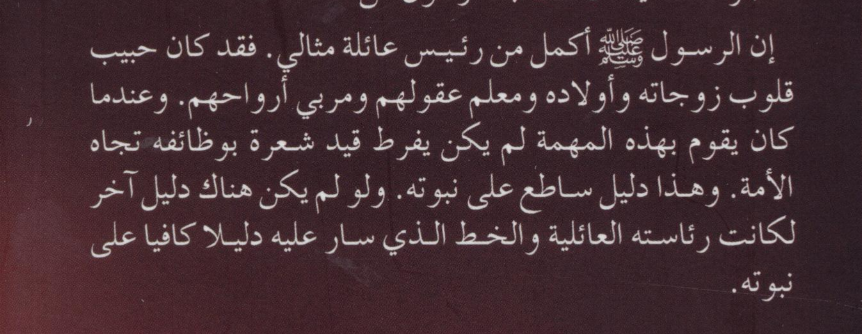
فن التربية وحل المعضلات

لقد قام رسول الله ﷺ بحلّ جميع المشاكل والمعضلات بكل يسر وسهولة دون أن يقع في دائرة مفرغة من استخدام الضغوط والإرهاب والقوة الطاغية، بل أخذ الإرادة الإنسانية الحرة بنظر الاعتبار واحترمها وربّاها. ولو أخذتَ هذه الناحية فقطِ بنظر الاعتبار دون النظر إلى حالاته الخارقة للعادة ودون النظر إلى معجزاته العديدة لآمنتَ بأنه رسول من عند الله.

إن الرسول ﷺ أكمل من رئيس عائلة مثالي. فقد كان حبيب قلوب زوجاته وأولاده ومعلم عقولهم ومربي أرواحهم. وعندما كان يقوم بهذه المهمة لم يكن يفرط قيد شعرة بوظائفه تجاه الأمة. وهذا دليل ساطع على نبوته. ولو لم يكن هناك دليل آخر لكانت رئاسته العائلية والخط الذي سار عليه دليلا كافيا على نبوته.

المؤلف:
محمد فتح الله كولن

المترجم:
اورخان محمد علي



دار النيل
للطباعة والنشر

ISBN 975-315-176-4